رسائل نادية

رواية

عنوان الكتاب: رسائل نادية، رواية
الكاتبة: نهى عاصم
الطبعة الأولى: 1440هـ - 2020م
© جميع حقوق الطباعة والنشر الورقيّ والإلكترونيّ محفوظة
مركز ليفانت للدراسات الثقافيّة والنشر
ب ض: 03- 11- 520- 00408- 5- 022
س ت: 9882
الإسكندريّة – مصر، 44، شارع سوتير، أمام كليّة حقوق الإسكندرية - الدور الثالث، الإسكندرية، مصر
موبايل: 002-01030036491
هاتف: 002 -034830903
بريد إلكتروني: levantegsy@gmail.com
موقع إلكتروني: www.levantcenter.net
رقم الإيداع: 25923/ 2020م
الترقيم الدولي: 978 - 977- 6651 - 83 - 8
التدقيق والمراجعة اللغوية: عبد القادر أمين
التنسيق والإخراج: أحمد إبراهيم
تصميم الغلاف: نعمة محمد عبد الغني

رسائل نادية

رواية

نهى عاصم

إهداء

إلى أمّي التي علّمتني الإحساسَ بقيمة الرّسائل...
إلى أبي الذي كان يُراسلني من كلّ ميناءٍ يذهب إليه...
إلى كلّ مَن أحبّ تبادلَ الرّسائل...
إليكُم كتبتُ هذه الرّواية...

نُهى

الفصلُ الأوّل

1

أمّي الحبيبة...

أفتقدُك بشدّة يا أمّي، ثمانية أشهرٍ مرّت وكأنّها ثمان سنواتٍ بعيدة عنك، ولكنْ قريبًا أعودُ إلى دفء حضنِك وحضنِ أبنائي، خاصّة حماده... أفتقدُه بشدّة، وأستيقظُ من نومي كثيرًا أشعرُ به يناديني وأنتِ تعْلمين حبّي لأبنائي جميعًا، ولكنْ لحماده مكانة خاصّة في قلبي، وكما يقولون "البصّة في وشّه عندي بالدّنيا".

أستحلفُك بالله يا أمّي، عندما تصلُك رسالتي أنْ تجعلي مَن يقرأها لك يُجيبني فورًا، قلقةُ أنا عليكم وعلى أولادي، فأنتِ تعلمين أنّ والدهم لا يردّ على رسائلي، والاتّصالاتِ هنا مُكلّفة، وعدم وجود هاتفٍ لديكم يجعل الأمرَ صعبًا؛ وكلّما اتّصلتُ بعمّ خليل البقّال ليأتيني بأحدكم، ينقطع الخطّ قبلَ سماعي لصوت أحدِكم... أريدُ الاطمئنان، خاصّة على حماده؛ فقلبي قلقٌ عليه، رأيتني في منامي أبحثُ عنه، فهل خرجَ وفُقِدَ ثانية ووجدتموه؟

أرسلتُ لأخي رسالةً منذ أسبوعين ولم يردّ هو الآخر، أشعرُ بطول مدّة الغربة يقتلني ويزيد الفجوة بيني وبينكم، وكما يقول المثل (بعيد عن العين بعيد عن القلب).

سلامي لأخواتي البنات، أعلم أنّ مَن تقرأ رسالتي الآن هي إحداهنّ، قولي لها، "أرسلي لأختك ردًّا حالاً لتطمئنّ ويهدأ قلبها، فأنت دونًا عن الجميع تعلمين يا أمّي معنى جملة... "قلب الأمّ واكلها"".

أحضرت لك قطعةَ قماشٍ جميلة، وفصّلتها فستانًا، وسأرسله لك في أقرب فرصة لتحضري به فرحَ ابنة خالي، كنت أتمنّى أنْ أشتري لأخواتي كذلك لكنك تعلمين كلّ ما أحصل عليه من مال يذهبُ إلى سعد زوجي لينفقَ على الأبناء، ويدفعَ مصاريف مدرسة حماده؛ فاطلبي منهنّ أنْ يسامحنني، وادْعي لي يا أمّي؛ فأنا أقومُ بالتّفصيل لمديرة القصر وللخادمات، وأقبض منهنّ مبالغَ بسيطة، استطيعُ بها تدبيرَ حالي ولو قليلاً، قبّلي لي الأولاد، وقولي لهم... قريبًا سأعود إليهم.

ابنتُك

نادية

*****

تضع نادية الرسالةَ بالظّرف، وتفكّر هل تكتب إلى زوجها سعد رسالةً جديدة؟

ترفض الفكرة؛ إذْ أنّه يتجاهل–دومًا–الردّ عليها منذُ أتت إلى السّعودية للعمل كخيّاطة لدى أميرةٍ من أميرات العائلة الحاكمة... تنظر نادية إلى الرّسائل وتقوم بعدّها للتّأكد أنّها لم تنسَ رسالةً ما إلى أحدهم، فوقتُ نزولها إلى السّوق لشراءِ لوازم خياطة ملابس الأميرة قد اقترب.

الرّسائل–كنزُ نادية في الغربة–ترسلُها لزوجها والأبناء، لأمّها وأخواتها، وسيداتٍ كانت تعمل لديهنّ خيّاطة باليوميّة في الإسكندرية، وكان بينهنّ–كما يقول المثل (عيش وملح) لم تنْسَه نادية، ولم ينسيْنَه هنّ كذلك، فتبادلنَ الرّسائل منذ سافرت، ودامَ الودّ والمعروف، ولم ينقطع، وكانت الرّسائلُ دومًا سلوى لها في غربتها... تهتمّ نادية بشراءِ الأوراق ذاتِ الألوان الجميلة الهادئة لتسطّر عليها الرّسائل، كما أنّها تهتمّ بشراء مختلفِ كروت المعايدة لترسلَها إليهم في أعياد الميلاد، أو الأعياد، وغيرها.

تتذكّر نادية–بحرقةٍ–يومَ أقنعها زوجُها بالسّفر للعمل بالسّعودية، فهو منذ عادَ من العراق ناجيًا من قصّة قتل المصريّين وعودتهم في النّعوش عام ١٩٨٩[1] وهو لا يعمل، صدمته الأحداثُ كما يدّعي، وأصبح عاطلًا مرّة

1، www.arabic-military.com/t34885-topic

ثانيــة، يتعــاطى الحشــيش، فأقنعهــا أنّ يوميّــات الخياطــة في مصــر قليلــة، ومصروفات الصّبيان كثيرة، خاصّة حماده المتخلّف!

اشتدّ بكاؤها فهي تكره هذه الكلمة التي ينْعتون بها حبيبَ قلبها الصّغير، وتحزن كثيرًا لكرهِه لابنهم، ولا تدري ما ذنبُه إذْ ولِدَ بعقلٍ قاصر لا يعمل بكفاءة؟ أخذتْ تستغفرُ الله، وتجفّف دمعها، وقامت لتضعَ الرّسائل في حقيبة يدها، وترتدي حجابَها والعباءةَ لتنزل لمحمود سّائق الأميرة الخاصّ.

وجدت نادية الأستاذ هاشم-سكرتير زوج الأميرة-في الطّريق للسّيارة وهو من تتحاشّاه بكلّ الطّرق الممكنة منذ أتتْ إلى القصر؛ فهو يتحرّش بها بالكلام وبالنّظرات، وأصبحت تخافُه كثيرًا... استوقفها هشام قائلاً:

– نادية... انتظري... أريدُك في أمرٍ هام... سأسافر لمصرَ غدًا؛ فهل تريدين شيئًا؟

فكّرت نادية لثوانٍ... هل تطلب منه العونَ أم لا؟ ثمّ قالت:

- هل ستذهبُ إلى الإسكندرية؟

نظرَ إليها بمكرٍ قائلاً:

في 18 نوفمبر 1989، في أثناءَ احتفال المصريّين بالفوز على الجزائر في مباراةِكرة القدم في تصفيات كأس العالم، نشرتْ جريدة الأهرام، في 19 نوفمبر 1989، أنّ بغداد شهدت – أمس – أحداثًا مؤسفة، حينما اشتبك عددٌ من العراقيّين مع جَمْعٍ من المصريّين ؛كانوا يطوفون شوارعَ العاصمة العراقيّة تعبيرًا عن فرحتهم بوصول الفريق القومي المصريّ إلى نهائيات كأس العالم، ونتج عن تلك الاشتباكات مصرعُ عددٍ من المصريّين وإصابة عدد آخر؛ وفقًا لما أوردته وكالة رويتر، من دون تحديد أعدادهم.

- بالطّبع يا ابنة بلدي، هل تريدينَ قليلاً من مياه البحر؟ واللا أجيب لك شرغوشه يا أحلى شرغوشه؟[1]

ردّت نادية وهي تسأل الله السّترَ والعون:أريدُ الاطمئنان على أبنائي، فهل تستطيعُ هذا؟

- انقطعتْ عنّي أخبارهم منذ شهرين، ولا يصلني منهم أيّ رسائل.

- لكِ هذا يا نادية، وسأعودُ بعد يومين، وأطمئنُكِ، ولي المكافأةُ حينَها.

ردّت نادية وهي نادمةٌ على تسرّعها مع هذا الحقير:

- يومان؟ لا عليك، فمِن المؤكّد أنّك ستكون مشغولاً، سأقوم بإرسالِ رسائلَ لهم أثناء ذهابي لشراء مستلزمات الأميرة مع محمود السّائق.

- الموضوع مُنتهٍ كما اتّفقنا فأنا ذاهبٌ لأرى عائلتي وإنْ كنت تريدين إرسالَ بعض الأشياء لهم فأنا على استعدادٍ لإيصالها أيضًا.

- جميل... لديّ بعض الأشياء كنتُ أنتظر أنْ يسافر أحدُهم إلى مصر لأرسلها معه، سأصعدُ في الحال لجلْبِهم.

- بل عندما تعودين، فأنا لا بدّ وأنْ أقابل الأمير حالاً، سأنتظرُك يا نادية؛ فأنا أحبّ الحديث معك دومًا.

---

1 الشّرغوش: نوعُ سمكٍ من أسماك الإسكندرية.

تقفُ نادية تفكّر كيف ستتخلّص من ورطة لقاءِ هذا اللّزج مرّة ثانية؛ فهي لا تريد سوى الاطمئنان على الأبناء... تهتدي فجأة لفكرةٍ؛ فتصعد لغرفتها وتعودُ حاملة الهدايا.

2

تدخُل نادية إلى السّيارة لتجدَ محمود السّائق ينظرُ إليها قائلاً:

– رأيت الحقيرَ هاشم وهو يتحدّث إليك، ولكنْ بالطّبع لم أستطعِ الاقتراب؛ فأنتِ تعلمين كم هو شريرٌ... ماذا يريد

تقصّ عليه نادية ما حدث، وتطلبُ منه أنْ يعطي الهدايا لهاشم بحجّة أنّها مرضتْ من شمس السّوق، فيبتسمُ محمود قائلاً:

– علّمونا في الغربة الكذب، وغيّروا لنا أسماء أهلنا، وغيره... وغيره.

وأخذَ يغنّي بصوتٍ جميل: "يا غربة رسّينا.... طال الطريق بينا دي السّكة نسّاية... تايهة في خطاوينا.[1]"

ردّت نادية:

– وهل غيّروا اسمك؟

- أبي اسمُه عبد النبي، قبل سفري قالوا لا بدّ من تغييره لعبد ربّ النّبي إذْ أنّه لا يوجد عبدٌ سوى لله؛ فقمتُ بتغيير اسم أبي، أشعرُ به يتقلّب في قبره غاضبًا، يريد أن يتنصّل منّي.

تضحكُ نادية وسط حزنِها قائلةً:

- الله يسعدك؛ أضحكتني.

---

1 أغنية لإيمان البحر درويش.

- اضحكي يا نادية؛ الحزنُ يقهرُ القلب، ويجعلنا نشيب؛ تكفينا الغربة.

- أنتَ على حقّ.

- في طريق العودة، ذكّريني أنْ أسمعك شريطَ مُحَمَّد منير الجديد، به أغنية حلوة جدًّا، أحببتها، اسمُها (يا اسكندرية)، يقول فيها: (يا اسكندرية... بحرك عجايب... يا ريت ينوبني... م الحبّ نايب.).

- وأين لك الحبّ هنا يا سي محمود، ونحن مقفول علينا بالضبّة والمفتاح؟

- يا ستّي... وهل أنا مَن يغنّي؟ إنّه منير، على فكرة كتبتْ لك كلمات قصيدة نزار التي غنّتها فايزة، (رسالة من امرأة)، تذكّري أنْ تأخذيها.

- شكرًا يا محمود، لا أدري ماذا أقول لك، أنتَ ورسائل السيّدات اللائي كنتُ أعملُ لديهنّ تهوّنون عليّ الكثير، حتّى القصيدة التي أعجبتني هي بعنوان رسالة.

- قلتِ لي يومًا أنّك ستقصّين عليّ حكايتَك، وحتّى اليوم لم تتحدّثي عنها يا بنتَ النّاس.

- وصلنا إلى السّوق، في طريق العودة إنْ شاء الله.

3

بدأت نادية الحديثِ في طريق العودة دونَ مقدّمات:

- اسمعْ يا محمود، هذه حكايتي باختصار... ولدتُ طفلةً جميلة، سمراءَ، ذات شعرٍ أسودٍ كثيف، وعيون سوداء شديدة الاتّساع، وملامح تعِدُ بالجَمال الفتّان، هكذا كان يقول لي أبي دومًا ، وكنتُ الكبرى بين إخوتي، والمقرّبة من أبي... كان يجلسُ بالسّاعات يتحدّث معي، ويعلّمني، ويوسّع مداركَ عقلي بالمعلومات، فبالرّغم من أنّه كان عاملاً بسيطاً إلا أنّه كان يهوى القراءة... مات أبي وتركني أنا وأختين وأخًا بلا مالٍ أو معاش، فقط البيت الذي بناه له ولأولاده، كنت وقتَها في نهاية المرحلة الإعدادية، فالتحقتُ بمدرسةٍ ثانويّة فنيّة، وأجدْتُ الخياطة، وكنت أعملُ وأدرسُ لأنفقَ على نفسي وأسرتي... كانت أمّي تعمل خادمةً في البيوت، وكانت دومًا مريضة، تتغيّب كثيرًا؛ ممّا جعل الكثيراتِ من سيّدات البيوت يرفضنَ أنْ تعمل لديهنّ، أمّا أختاي فرفضتا استكمالَ الدراسة وعملتا خادمتيْن لدى أسرتيْن من الأسَر التي كانت أمّي تعمل لديهم، أمّا أخي فقد ترك الدراسة هذو الآخرُ، وعمل لدى الأسطى سيّد السّباك، الذي كان يعمل لديه أيضاً سعد، الذي أصبح زوجي فيما بعد... كان سعد مُعجبًا بي، ينتظر أنْ أنتهي من دراستي كي يتقدّم خاطبًا لي، ولكنّه كان كسولاً دائمَ التّغيب، ولا يعمل بجدّ، ويهوى جلسات الحشيش

مع رفاقه، وكان يعلم أنّ لديّ شقة في بيت أبي، وأنّني أعمل خيّاطة وأربحُ جيدًا؛ فالتزم قليلاً في العمل، وتقرّب من أخي وأمّي، ثمّ تقدّم لي قبيلَ الانتهاء من امتحانات آخر عامٍ خوفًا من العرسان الذين أصبحوا يحومون حولي طمعًا في جَمالي، وفي البيت...وافقتْ أمّي وأخي، وترددّتُ أنا، لكنّي رضخت لرغبتِهما، وتزوّجت بعد الانتهاء من الدّراسة، لم يشترِ لي سعد سوى خاتمي زواج، أمّا الشبكة فوعَدَ بشرائها بعد الزّواج عندما يستطيع التّوفير، كما لم يجلبِ الكثيرَ في الشّقة، وكانت أغلب الأشياء من مالي ومال أمّي والسّيدات التي تعمل لديْهن.

قاطعها محمود:

- ما تمّ شراؤه رخيصًا يُباع بالرّخيص يا نادية، كان لا بدّ وأنْ تعرفَ أمّك وأخوك هذا قبلَ إتمام هذه الزّيجة.

- لمَ تقول هذا يا محمود؟

- سامحيني، ولكنّ الرّجل الذي يرسلُ زوجتَه بعيدًا كي تعمل في بلادٍ لا يعرف عنها شيئًا، ويتركُها فريسةً لأمثال هاشم وغيره، ويظلّ هو في بيته؛ لا يُمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن يوصفَ بأنّه رجل... على الرّجل أن يصون زوجتَه، يصونها يا نادية ولا يفعلُ بها هذا... آسف أنا أعاملُك مثلَ أختي منذُ عرفتك، ولا أعرف أنْ أواري ما بقلبي من أفكار... ها نحن قد وصلنا للأسف، هل لكِ أنْ تكتبي لي باقي قصّتك في رسالةٍ مثل الرسّائل التي

تكتبينها لصديقاتك وتعطيها لي ساعةَ العشاء حينما أعطيك القَصيدة؟ لكنِ احرصي على ألا يرانا أحدُهم ونحنُ نتبادلها؛ فأنا لا أطيق أنْ يمسّك أحدهم بسوءٍ فقد أقتله.

- إلهي ربّنا يجبرك، ويرزقك برزق أمّك.

- وأخواتي أيضًا يا نادية.

- لم تذكرْ لي يا محمود قبلاً، هل أنتَ متزوّج؟

- كنت زوجًا، حكاية طويلة سأكتبُها لك قريبًا إن شاء الله، والآن سأذهب لهاشم، وأتمنّى ألا تظهرَ على وجهي ملامح التشفّي حينما يرى أنّني مَن جلبتُ له أشياء أسرتك.

- كفانا الله شرّه.

- يا ربّ يا نادية.

4

العنود، أميرةٌ شابّة في عمر نادية أو أصغر قليلاً، تزوّجت بابن عمّها منذُ أتت للحياة، إذ اتّفق والديهما على ذلك، هي لا تحبّه ولكنّها علمت أنّه زوجُها منذ الطفولة، ولم تعلمْ لها رجل سواه، فرضخَ القلب مرغَمًا للتقاليد.

ترتدي العنود كلّ يومٍ فستانًا لا ترتديه مرّةً أخرى، وأحيانًا تحتاج لثوبين أو مجموعةٍ ثياب إذا سافرتْ خارج البلاد مع زوجها الذي يعمل بوزارة الخارجية.

تزوّج والدها أمّها المحامية المصريّة الشابّة، وأنجب منها العنود، التي طالبت بحقّها في العمل في وظيفةٍ تليق بمكانتها كمحاميةٍ ناجحة، فرفضتْ عائلة الزّوج الفكرة، وتمّ الطّلاق في هدوء، وعادت الزّوجة إلى الإسكندرية؛ حيث عملتْ وذاعَ صيتُها كمحامية وحقوقيّة، وكانت تلتقي الأميرة دومًا في رحلتي الشّتاء والصيف كما تتندّران، الأولى في الكريسماس حيث تلتقي الأميرة بأمّها في إحدى الدّول الأوروبية، والثّانية في صيف الإسكندرية حيث تعيش أمّها في بيت عائلة الأمّ الدّافئ، فتنعم وتحيا هانئةً سعيدة، بعيدًا عن أسوار قصر الأب المِجْحفة.

حينما تعلّق قلبُها بابنِ خالها الطّالب بكلية الطبّ، الذي كان مدلّهًا- هو الآخر-بحبّها، تحدّثت الأمّ معهما كلٌّ على انفراد، وأقنعتْهما بأنّه لا جدوى من محاربةِ تقاليدٍ لم تستطع هي وزوجُها سوى الانحناء لها.

*****

دخلتْ نادية على الأميرةِ بثوب السّهرة المنتهي والذي لا يحتاج لأيّ تعديل، فنادية لديْها بغرفة الخياطة موديلاً على مقاس الأميرة، صُنعَ خصيصًا كي لا تقيس الثّياب كثيرًا.

- أهلاً نادية حبيبتي... تعرفين... أحْلى وقتٍ في يومي يكون حينما أجلسُ مع ابني وابنتي، أو حينما أكونُ معك لنتكلّم بلهجتي الإسكندراني، فأكون على راحتي.

تضحكُ نادية قائلة:

- لا... وليستْ أيّ لغة! أنتِ تتحدّثين اللهجة الإسكندراني بجدارة.

تتقمّص العنودُ الشّخصيةَ قائلة:

- أيوووووووووووه!! إيه الفستان الحلو داه؟ داه احنا حنهبل الستّات في حفلة اللّيلة يا نادية.

تضحكُ نادية:

- إذا تحدّثت هكذا في الحفلِ ستَعودين إلى القصر كسندريلا حافية مشرّدة.

تتضاحكُ العنود، وتشكر نادية سائلةً إيّاها:

- هل وصلتْك أنباءٌ عن أولادك؟

- أبدًا.

- سأطلبهم لك حالاً.
- ولكنّها مكالمة تأخذُ وقتًا طويلاً.
- كمِ الرّقم؟

يردّ عمّ خليل البقال، ويرسل الصّبي الذي لا يلبث أنْ يعود قائلاً:

- لا يوجد أحدٌ في المنزل سوى والدتِك، التي تقول لك جميعُنا بخير.
- الحمدُ لله، فليهدأ بالك.
- لا أدري لمَ قلبي قلقٌ يا أميرتي، لعلّه خير.
- بل هو خيرٌ إنْ شاء الله.

5

محمود...

ها أنا ذا أعودُ لأكمل لك حكايتي...

أخذَ سعد يتغيّب عن العمل بعد زواجي يومًا بعد يوم؛ فطردَه صاحبُ العمل، وعاش عالةً على كاهلي، وكنت حاملاً في توأم، وظللتُ أعمل حتّى يوم الولادة، وبدأ زوجي يتطاول عليّ سبًّا وضربًا بسبب نقصِ المال متّهمًا إيّاي بأنّني حملت بعد زواجنا مباشرة، مُعتقدةً أنّني بهذا أربطه إلى جانبي كزوج، وازدادُ توحّشًا، وأصبح يدخّن الحشيش ليل نهار؛ وكمْ نصحته دون أن يبالي.

اكتشفتُ حمْلي للمرّة الثانية بعد عدّة أشهرٍ من ولادتي، فهاج سعد، وضربني كي أجهض فنزفتُ بشدّة، ولكنْ شاء الله أن يتمّ الحمل، ويولَد حماده-قرّة عيني-معافًا إعاقةً ذهنيّة، (متخلّف عقليّ كما اعتاد سعد تسميته) فكرهتُ زوجي لا سيّما أنّه علّم التّوأم-فيما بعد-أنْ ينعتاه بهذا اللفظ (حماده المتخلّف).

ملّ سعد حياته، فأقنعه رفيقٌ له بالسّفر للعمل في العراق، فسرقَ مصوغاتي، وباعَها وسافر لشهرٍ وأيّام قليلة، ولم يلبث أنْ عاد فارًّا من جحيم مقتل المصريين هناك.[1]

---

1 سبقت الإشارة إلى ذلك الحادث.

عاد بطباعٍ شرسةٍ، متّهمًا إياي بأنّني... (قدمْ نحْس) جلبتُ له النّحس والفقر منذ تزوّج بي.

رآني هاشم الذي كان يعملُ سكرتيرًا لأميرٍ سعوديّ... كان يتردّد كثيرًا على منطقتنا باحثًا عن عمالةٍ للمملكة، وباحثًا لزوجةِ هذا الأمير عن خيّاطة ماهرة، فأعجبتْه، فبدأ يغدق المال على سعد وإقناعه بسفري!

حاولتُ رفضَ العمل في الخارج بحجّة الأبناء والسّيدات اللاتي أعملُ لديْهنّ، وقد أصبحنَ بمثابة أسَرٍ لي، وبحجّة حماده الذي يحتاج ليّ كثيرًا، ويحتاج للمراقبة؛ إذْ أنّه دائمُ الخروج كلّما سنحتْ له الفرصة كلّما تغيّبت عن المنزل، كما لو كان يفتقدني فيخرجُ للبحث عنّي، فأبحثُ عنه أنا وأخي والجيران، أمّا سعد فيجلسُ في المنزل داعيًا الله ألا يعود، ويأخذَه الله ليرتاح.

أقنعني سعد أنّ وجود إخوتي وأمّي في نفس البيت سيكفلُ له الكثيرَ من العناية، وأنّ زيادة المال ستكونُ فرصةً لوضْع حماده في مركزٍ للتّأهيل، وذهب معي إلى أحدِ المراكز، ودفع مبلغًا كبيرًا من المال أخذَه من هاشم- الشّيطان-الذي أوعز له بكلّ هذه الخطّط الشيطانية.

هذه قصّتي يا محمود، وبقيّتها تعلمُه أنت منذُ مجيئي إلى هنا.

تتغاضى نادية عن ذكْر خيانات زوجها لمحمود خجلاً، وستراً لزوجها، ثمّ تفتح الورقةَ التي أعطاها لها محمود، فتقرأ:

لا تدخلي

وسددت في وجهي الطريق بمرفقيك... وزعمت لي...

أن الرفاق أتوا إليك... أهم الرفاق أتوا إليك

أم أن سيدةً لديك... تحتل بعدي ساعديك؟

وصرخت محتدماً: قفي! والريح ... تمضغ معطفي...

والذل يكسو موقفي ... لا تعتذر يا نذل لا تتأسف

أنا لست آسفةً عليك ... لكن على قلبي الوفي

قلبي الذي لم تعرف ... ماذا لو أنك يا دني ... أخبرتني

أني انتهى أمري لديك ... فجميع ما وشوشتني

أيام كنت تحبني ... من أنني...

بيت الفراشة مسكني ... وغدي انفراط السوسن

أنكرته أصلاً كما أنكرتني... لا تعتذر...

فالإثم ... يحصد حاجبيك وخطوط أحمرها تصيح بوجنتيك

ورباطك ... المشدوه ... يفضح

ما لديك ... ومن لديك

يا من وقفت دمي عليك

وذللتني ونفضتني

كذبابةٍ عن عارضيك

ودعوت سيدةً إليك... وأهنتني

من بعد ما كنت الضياء بناظريك...

إني أراها في جوار الموقد ... أخذت هنالك مقعدي...

في الركن ... ذات المقعد...

وأراك تمنحها يداً ... مثلوجةً ... ذات اليد...

ستردد القصص التي أسمعتني...

ولسوف تخبرها بما أخبرتني...

وسترفع الكأس التي جرعتني...

كأساً بها سممتني

حتى إذا عادت إليك ... لترود موعدها الهني...

أخبرتها أن الرفاق أتوا إليك...

وأضعت رونقها كما ضيعتني

*****

تذكّرت نادية الكلماتِ التي سمعتْها مع محمود، وأنّ فايزة غيّرت في مضمون الكلمات، فغنّت:

يا مَن وقفتُ دمي عليكَ وذللتني ودعوت سيدة إليك

ونسيتني من بعد ما كنت الضياء بناظريك

كمْ أنتَ مثّقف يا محمود، شعر وتاريخ وحكايات وسياسة، أشياءُ كثيرة ترويها علِّي، فأشعرُ كمْ نحن صغارٌ أمامَ هذا العالم كقطراتِ مياه وسطَ بحر... تُرى ما هي حكايتُك أنتَ الآخر؟

6

نادية

لا أدري مِن أين أبدأ يا نفرتيتي، سأطلقُ عليك لقبَ نفرتيتي منذُ اليوم، لقد أطلقتُه عليك منذ أتيتِ إلى القصر، وقد يأتي اليوم الذي سأخبرك فيه عنْ معناه، ولمَ أطلقته عليك، سأبدأ مِن عند محمود الطّالب الجامعي!

نعمْ سيّدتي...

أنا خرّيج كلية آداب قسم تاريخ، كنتُ أعشقُ ترابَ مصر، وتاريخَها مِن قبْل مينا موحّد القُطرين وحتّى أيّامنا هذه التي لا يعلمها سوى الله... كنتُ مؤمنًا بالكثير من الأشياء، ليس فقط في مصر؛ بل في حقّ فلسطين الضّائع، الوحدة العربيّة... إلخ. أيضًا كنتُ شابًّا، طموحي لا حدّ له، (وكلّه نزل على فشوش) كما يقولون.

تسألينني: "إيه اللّي جاب القلعة عند البحر؟" أقول لك هو الواقعُ الذي يعيشه أغلبُنا في مصر، والذي جعلَ مِن ابن دكتور في القسْم مُعيدًا رغمَ فشله البيّن، وجعل منّي مدرّسًا للتّاريخ في مدرسة إعدادية للبنين، فكرهت التّاريخ، وكفرتُ بمصر، ولم أستطعْ أن أعملَ كمدرّس لطلاب يأتون إلى المدرسة ليشاغبوا لا ليدرسوا، كما أنّ مُعظمهم لا يريد أنْ يعلم، أو يتعلّم أيّ شيء عن مصر، فقدّمت استقالتي وقلتُ أرحمُ أبي الذي أرهقَه مرضُ السّكر

بالعمل كسائقٍ تّاكسي يملكه، والذي عمل عليه كي نتخرّج ونعيشَ في مصر كآدميّين، ورفضتْ مصر يا سيدتي!

تزوّجتُ من بنت الجيران التي تخيّلت أنّها ستقدر أنْ تقنعني بالعودة لتدريس التّاريخ، والعمل كمدرّسٍ خصوصي، أو أسافر إلى إحدى الدّول العربية فنصيرُ أغنياء، ولكنّي رفضت. وبعد عام، تركتْني بنتُ الجيران المصريّة الأصيلة لأنّي "وشّ فقر، مش غاوي نعمة" كما ادّعت، وتزوّجَتْ بعد انْقضاءِ عدّتها بيومين من مدرّسٍ يعمل في السّعودية، ولديه شقّة في مكانٍ أرقى من منطقة سكني، وسيارة، وغيره... وغيره، وتركتْ وراءها كلّ شيء، وسافرتْ لتعملَ معه وتنهلَ من بحر المال.

ماتَ أبي بحسرتِه، وترك أمّي وأخواتي البنات في رَقَبتي، والحمدُ لله أنّني لم أنجبْ، فما ذنبُ الأبناء في مثلِ هذه الزّيجة؟ وفي يومٍ كنتُ أجلس مع قريبٍ لي على المقْهى فعرّفني بهاشم، وأقْنعاني بالسفر والعملِ كسائقٍ خاصّ في بيت أمير، وأنّ هذا بابُ رزقٍ جيّد لأخواتي البنات؛ اسْترهُنّ وأزوّجهنّ، ولأمّي كي تزورَ بيتَ الله الحرام، وعملتُ عامًا بعد عام، كنتُ سائقًا أعمى، وأخرس، وأصمّ للأمير وأهله، وهذا أكثرُ شيء يحبّونه.

علمتُ يوماً أنّ الأميرة جلبتْ من مصرَ خيّاطة جديدة بديلةً للتي ستسافر لتتزوّج، وسأتعامل معها مثلَ السّابقة؛ أذهبُ بها لمحلات الأقمشة ولوازم الخياطة التي تحتاجها الأميرة، وبالفعل... دخلتِ أنتِ علينا وقت

العشاء يا نفرتيتي، وأعدْتني ملبّيًا للتّاريخ الذي كنتُ نسيته، وشعرتُ بكِ أختًا مِن أخواتي البنات، وأتمنّى أنْ يكون هذا شعورَك تجاهي أيضًا.

تذكّرت شيئا الآن، لمَ مسّت أغنية فايزة فيكِ شيئًا مختلفًا عن باقي الأغاني التي سمعتِها معي؟ هل كان زوجُك إضافةً لكلّ مساوئه خائنًا؟ آسف لتحليلي هذا، لكني أظنّ أنّي محقّ.

7

يجلسُ سعد مع هاشم بالمقهى... آهٍ من سعد هذا الذي عادَ لمركز التّأهيل بمجرّد سفر نادية مستردًّا المال، وظلّ حماده كمًّا مهمَلاً في المنزل، تحاول أمّها مساعدتَه ما استطاعت كلّما كان لديها القليلُ من القوّة.

لم يذكرْ لها أحدٌ أنّ زوجَها استردّ المال، وأنّ حماده لم يذهبْ إلى مركز التّأهيل، وظلّوا يكتمون عنها أخبارَه، وكيف أنّه هرب من المنزل عدّةَ مرّات، وكمْ يصرخ ويبكي باحثًا عنها، ولاعنًا قسوةَ سعد في معاملتِه وإخوته... ينظرُ هاشم إلى سعد، ويسأله بارتياب:

- كيف ماتَ الولد؟

يردّ سعد مرتبِكًا:

- خرجَ كعادته من المنزل ولم نجدْه... يومان ونحنُ نبحثُ عنه في كلّ مكان ولم نجده سوى في المشْرحة، دهستْه سيّارةٌ مُسرعة وهو يعبرُ الطّريق، فماتَ في التّو.

- متى كان هذا؟

- منذُ أسبوعين.

- ولماذا لم تخبروا زوجتَك، أو تردّوا على اتصالاتها؟

- إنْ فعلنا هذا ستترُك العمل عائدةً إلى مصر، ومَن لهؤلاء الصّبيان، وأنا كما تعلم لا أعمل؟

- اجلسْ حالاً اكتبْ رسالةً تقصّ عليها ما حدث بالتفصيل، وتقول لها بأنّك ستقومُ بتطليقها.

- أطلّقها!

- نعم تطلّقها، وسأوفّر لكَ عملاً في السّعودية في مدينةٍ ثانية في قصر أميرٍ يحتاج لحارس لقصره، هذا القصرُ يعدّ مَصيفًا، ومعنى هذا أنك (حتقعد من غير شُغلة ولا مشْغلة طول السنة، وتحشّش براحتك، وتأخذ آلاف الريالات).

- وأقولُ لها لمَ طلّقتُها؟

- اخترعْ ما تحبّه؛ فلنْ تغلب.

ردّ سعد مُهمهمًا:

- لا حاجة للاختراع! (دي فقر، من يوم ما أخدتها مشوفتش مِن وراها إلا الخراب) طالق وبالتّلاتة كمان.

- تمام... تذهب غدًا وتطلّقها غيابيًّا، وسيمرّ عليك واحدٌ بعد عدّةِ أيّام يتسلّم منك صورةً عقد الطّلاق، ويسلّمك العقد الخاصّ بعملك وإجراءات السفر.

- هكذا سريعًا!

- خيرُ البرّ عاجلُه، أريدك أنْ ترفع رأسي، لا تجعلني أعْطيك الوجهَ الثّاني لهاشم، واستخرجْ لعروستِك جوازًا للسّفر كي تلحقَ بك بعد ذهابك، وترتيبِ أمورك.

- عروستي؟

- لا يخفَى شيء على هاشم يا سعد... ضعْها حلقةً في أذنك تربح.

8

نظرتْ نادية إلى الرّسائلِ التي وصلتْ إليها، ولم تجدْ أيّ رسالةٍ من أهلها، فبدأت برسالةِ مدام هبة:

نادية

كيف حالُكِ يا عزيزتي؟ افتقدُك جدًّا... أحتاجُ للتحدّث معك مثلما كنّا قبل سفرِك ونحنُ نحتسي القهوة... أخذتُ قرارًا مصيريًّا لا رجعةَ فيه، وأظنّ أنّكِ تعرفينه، نعم استقلتُ من مكتب المحامي الذي باع ضميرَه منذُ زمن، قلت لي قبل سفرك "قلبك أخضر يا مدام هبة، مش بتاع لفّ ودوران، وما ينفعش تشتغلي في الأزرق".

كنت على حقّ يا نادية، لا؛ ولنْ أبيع ضميري، لا أستطيعُ أنْ أتلاعب في قضايا، وأتسبّب في أذى أبرياء، أو أبرّئ مجرمين.

أنتِ على حقّ يا نادية... قد أكونُ أخذت وقتًا حتّى قرّرت، ولكنِ الحمدُ لله... لم أتورّط في أيّ شرّ، ولم أؤذِ أحدَهم، لا تتخيّلي مدى راحتي بعدما اتّخذت هذه الخطوة رّغم، أنّي سأبدأ في البحث عن عمل، وظروفُ البيت تعرفينها، أنا وزوجي نساندُ بعضنا بعضًا، ولكنْ سيجبرني الله.

البنتان بخير، تسألانِ عنك، تفتقدان الثّياب التي كنتِ تبدعينَ في خياطتها لهما، والأستاذ علي سيبدأ عامَه الدّراسي في المرحلة الابتدائية بعد عدّة أشهر (العيال كبروا، وكبّروني يا ستّ نادية)

أمّي كما هي! تعيشُ لنفسها فقط... لا تسمعني، أو حتّى توافق أنْ تجالس الأولاد أثناءَ بحثي عن عملٍ في مكاتب المحاماة والشّركات القانونية.

تذكرينَ أبي–رحمه الله–يا نادية؟ لو كان حيًّا لتكفّل بإسعادي، والسّماعِ لي، ولكنْ قدّر الله وما شاء فعل، كان يردّد دومًا على مسامعي، "انظري لنا يا ابنتي وتعلّمي... لا تنتقل الطّباع في الأبناء مثل الجينات، بل تكتسبينَها... تجنّبي أخطاءنا، وخذي محاسن أفعالنا."

سأكون لأبنائي ولله الحمدُ مثلما كان أبي لي، وليس كأمّي... لطالما رفضت الغلطَ في عملي وأحاولُ أن أكونَ على صواب... إذًا هو خير.

في انتظار ردّك ومجيئك في القريب.

هبة

ترفعُ نادية رأسَها إلى السّماء شاكرة لله، وتقرّر أن تلجأ للعنود؛ فقد تستطيع أمّها مساعدة هبة، وتؤجّل الردّ عليها حتّى تستشير العنود غداً.

9

وقفتْ نادية متردّدة، وهي تسألُ مديرةَ القصر في خجل:

- أستاذة آمال... أرجوكِ تعالي معي عند مقابلة الأستاذ هاشم، أخافُ أن أكون معه وحدي، وأنت أعلمُ النّاس بنظراته وتصرّفاته معي.

ردّت آمال بثقة:

- بأيّ صفةٍ يا نادية أصحبُك وقد طلبَ منّي رؤيتك؟

- تمسّكي بي وكأنّ لدي هبوطًا من الجوّ الحارّ الذي لم أعتدْه حتّى الآن، فأنا منذ علمتُ بعودته وأنا متوجّسة، وأشعرُ بالهبوط وكأنّه أتى لي بخبر شؤمٍ مثله.

- أعوذُ بالله، تفاءلي بالله خيرًا... هيّا بنا، والله يحفظنا من شرّه.

تطرقُ آمال البابَ لتسمع هاشم يدعو نادية للدّخول، فتدخل ونادية تستندُ على ذراعها قائلة:

- عذرًا أستاذ هاشم، نادية مُتعبة، ولكنّها أصرّت على النّزول لمقابلتك والاطمئنان بنفسها على أسرتِها.

- سلامتك يا نادية، أنا قابلتُ سعد زوجك، وأعطاني هذه الرّسالة لك.

تنظرُ إليه نادية متوسّلة وتقول:

- رسالة؟ طمنّي، هل حدث مكروه لأحدٍ من أسرتي؟

- اجلسي لتقرئي.

تنظرُ نادية للرّسالة متوجّسة، وتفتحها لتقرأ:

*****

نادية

حاولنا أنْ نخبّئ عنك، ولكنّك مصمّمة لدرجة أنّك تطلبين بجرأةٍ أنْ يزورنا الأستاذ هاشم كما لو كان عاملاً معك بالقصر، وليس وليَّ نعمتك!

ابنُك المتخلّف مات... ارتاحَ وأراحنا لأنّه كلّما كبرَ في العمر يَثقُل علينا حملُه، وعليك خاصّة؛ لذلك نقولُ الحمدُ لله.

وعلى فكرة... أنتِ طالق، ورقتُك ستصلُك في أقرب وقت، كفاني من همّكم أنتِ، وأولادِك، وأمّك، وبيتكم الفقر.

سعد

10

وقفَ محمود مبتسمًا عند رؤيتِها:

- حمدًا لله على سلامتِك يا نادية، أسبوعيْن كاملين كلّ ليلة أقول سأراكِ الليلة على العشاء، وأسأل أستاذة آمال فتقول إنّك مُتعبة منكبّة على عملك، ولا تأكلين ولا تنامينَ، لدرجةِ أنّ الأميرة جلبت لك الطّبيب، وهدّدت بإدخالك إلى المستشفى، هل هذه أصولٌ يا بنت بلدي؟
- هل سمعتَ ما حدث يا محمود؟
- ابنُك في الجنّة ينتظرك وكلّ ما عليك الآن هو أنْ تكوني مؤمنةً حتّى تقابليه هناك، كذلك لا بدّ أنْ تكوني قويّة لتعودي لأطفالِك بصحّتك، وإلا ستهلكين مرضًا وضعفًا.
- أفتقدُه كثيرًا، أشعر أنّ الدنيا كأنّها أظلمت بدونه، لقد تحمّلت كلّ ما أنا فيه من أجله.
- هو موجودٌ في قلبك، وسيكون فرحتَك طوال عمرك.
- لم أكنْ معه حينما مات، لوْ كنت هناك ما كان ليموت... لديّ هاجس أنّ سعد أهمل في الاهتمام به!
- اذْكري الله... ما هذا الكلامُ؟ أنتِ امرأة تعرف الله.
- لا إله إلّا الله... أستغفرُك ربّي وأتوب إليك... طلّقني سعد يا محمود.

- لا بكاءَ عليه، لم يكنْ رجلاً منذُ تزوّجتِ به... أسيكون رجلاً الآن لتبكين عليه؟
- تركَ الولديْن التوأم لأمّي وأخواتي، ومضى... ما حدش يعرف له طريق جرّه.
- اكسري وراه قلّة... كوني قويّة، وأكملي عقدَ السّنة، وارجعي لدارك يا بنتَ النّاس؛ لأولادك ضعيهم في عينك.
- أنتظرُ لأتمّ عامًا؟
- مللْتِ منّا؟
- أبدًا والله، ولكنّي خائفة على أولادي بلا أبٍ ولا أمّ.
- لا تنسيَ أنّ على الأميرة إيجاد بديلةٍ لكِ، ونصيحتي أن تتكتّمي على موضوع عودتك لمصر، خاصّة مع هاشم... أنا متوجّس منه يا نادية.
- اتّفقت والأميرة أنْ أنتظر حتّى بداية العام الدراسي كي أعودَ لأهتمّ بدراسة أبنائي، وليكون معي مبلغٌ من المال يدْعمني قليلاً.
- عين العقل... ومتى سأصحَبك إلى السّوق لشراء لوازم الخياطة؟ زمان الأميرة المسكينة بتلبس الفستان مرّة واتنين وتلاتة من تحت راس كسَلِك ده.

تبتسمُ نادية في وجْه محمود، فيتفاءل بوجهها الصّبوح، ويرفع رأسه إلى السّماء يسأل الله أنْ يجعلها مِن نصيبه بعد انقضاءِ عدّتها، وأنْ يلهمه الصّبر احترامًا لقدسيّة أوامره تعالى.

11

تنظرُ نادية إلى رسائل التّعازي التي أتتْها من أهلها، ومِن السّيدات اللائي كانت تعملُ لديهنّ وهي تشكرُ الله على نعمةِ وجودهنّ في حياتها؛ فهُنّ كما يقال... نعْمَ السّند... تجلس لتردّ عليهنّ وتشكرهنّ، وتردّ على رسالة أخيها، وتطْلِعه على آخر أخبارها، وتكتب لمدام هبة رسالةً تشكرها على تعزيتها، وتخبرها أنّ والدة العنود تنتظرُها في مكتبها في أيّ وقت لمساعدتها على إيجاد عملٍ لديها، أو لدى أيّ زميل، وتكتب لها رقمَ هاتفٍ وعنوانَ مكتبها، تدخلُ آمال مديرةُ القصر وشريكتُها في الغرفة، لتقول لها:

- ماذا تفعلين يا نادية؟ ما زلت تقرئين وتكتُبين رسائل!!؟ تعالي معي نأكل شيئًا، ونشاهد التلفزيون أو نتحدّث مع الناس.

- لا... الحمدُ لله لا أريد طعامًا، أحتاج للنّوم مبكّرًا؛ ففي الصّبح لديّ الكثير من الأشياء أقوم بها للأميرة، وبعد العصر سأنزلُ مع محمود أجلبُ الطّلبات الخاصّة بسفرها إن شاء الله... سأكون الأيام المُقْبِلة مشغولةً للغاية حتّى أتمكّن من الانتهاء من كلّ ما تريده.

- تمام... لكنّي أتيت لكِ بقطعةٍ حلوى، وأستحلفُك بالله، وغلاوة حماده عندَكِ أنْ تأكليها... أنتِ ضعفتِ للغاية، وتعرفينَ مدى حبّي لك وخوفي عليك.

- حلّفتِني بالغالي.

- إذًا، سأفعل هذا كلّ مرّة ترفضين فيها الطّعام... على فكرة يا نادية أنا أجلت إجازتي إنْ شاء الله حتّى موعد سفرك والإتيان ببديلةٍ لك.

- لماذا؟

- لا أعرف، فقط لأطمئنّ عليك أكثر، وحينما آتي إلى مصر سأزورُك؛ فالمسافة بين دمنهور والإسكندرية صغيرة إنْ شاء الله، وأنتِ أيضًا لا بدّ وأنْ تحضري مع الأولاد وتردّي الزيارة أحسن مِن الرّسائل، ولو أنّني–وأمري إلى الله–سأكتب لك أراسلُك بمجرّد عودتي إلى هنا.

تضحكُ نادية قائلة:

- كما يقول المثل (مَن عاب ابتليَ ولوْ بعد حين).

12

نادية

أكتبُ إليك رسالتي هذه راجيةً من الله أنْ تكوني بخير حال، شكرًا ألفَ شكرٍ على رسالة تعزيتي في زوجي رحمه الله.

هل تعلمينَ مَن وقف إلى جوارنا طولَ أيّام العزاء الثلاث؟ وكان لنا نعْمَ السّند؛ كما رافقنا لعمل كلّ أوراق إعلامِ الوراثة وغير ذلك؟ لا أظنك ستتخيّلين مَن!

إنّه عادل... زوجُ رانيا يا نادية، أو طليقها!

أعلمُ أنّك الآن تضربين كفًّا بكفّ متعجّبة، ولكني أعلم-أيضًا-أنّك تعرفين أخلاق عادل وحبَّه لرانيا، وحزنَه على تطليقها لسببٍ تافه... عادل الذي ترجّى وتوسّل لزوجي رافضًا أن يطلق رانيا، الذي أجبره على تطليقها وظلمهما... عادل الذي لم يكنْ يعلم أنّ رانيا حامل، ورفض زوجي أنْ يخبره؛ بل وكاد يرغمُها على الإجهاض، ولوْلا رفضها التّام وموتُه الفجائيّ لا أعلم ماذا كان حدث.

عادل ردّ رانيا إليه في نفْس اللّحظة التي علم فيها بحملها، قائلاً:

- لقد ظُلمنا أنا ورانيا... فُرقنا رغمَ الحبّ بيننا، وأتمنّى أن يجمعنا هذا الجنين.

هي تدابيرُ الله يا نادية... هي تدابيرُ الله، يأخذ إليه زوجي ليعودَ عادل إلى ابنتي، ولننتظر معًا حفيدي الأوّل، أو حفيدتي بكلّ شوق ولهفة.

سبحان الله! لا يرضى ربّي بالظّلم، ولقد قلتُ هذا لزوجي، قلت له إنّه ظلم ابنته وزوجَها، وهذا لا يليق برجلٍ في عمره، فغضب منّي وتوعّدني بالطّلاق مثل ابنتنا... هل تتخيّلين هذا؟ يطلّقني بعد هذا العمر؟ أوَ لمْ يكفِه خرابُ بيت واحد؟

أستغفرُ الله العظيم، رحمه الله... أصابته نوبةٌ قلبيّة أوْدت بحياته، وانتهى الأمر... في انتظاركِ لتقومي بعملِ السّبوع لحفيدي إن شاء الله.

مع حبّي لك

عواطف

13

نادية

كيف حالك؟ أتمنّى أنْ تكوني بخير بعد أسابيع عشتِها في كابوسِ فقْدِ ابنك، أعيشُ أنا أيضًا في كابوس يا نادية، حسين يا نادية... حسين... مَن تزوّجتُ به عن حبّ، حسين... مَن حاربت مِن أجله كي أكون زوجًا له، مَن عشتُ سنوات في البيت معه كغرباء، لا يعلم عنّي شيئًا... هل أنا سعيدة؟ هل أحتاج شيئًا؟ هل... وهل... حتّى أنّه فوجئ بأنّني لا آكل الملوخية اليوم، وحينما قلت له إنّني لم آكلها طوال حياتي نظرَ لي نظرةَ جفاء وانكبّ على الطبق، هو لا يحتاجني إلاّ لطعامه وشرابه وثيابه وكأنّه اشترى جاريةً لخدمته في شقّةٍ للعزوبية، أو كفندقٍ كان يأتي فيه للمبيتِ والإفطار، ولا نراه أنا وأولادي، مَن خانني مرّاتٍ ومرّات، وكنت أغضّ الطّرف عن خيانته قائلة: (كيف تجرئين على طلب الطّلاق من رجلٍ حاربتِ الدّنيا من أجله؟، وبأيّ وجهٍ ستعودين إلى بيت والديك؟).

لقد رأيتُه وهو يعاكسُكِ أنت، نعمْ رأيتُه... ورأيتُ كيف تصرّفت، وكيف امتنعتِ عن المجيء لبيتي، وأصبحتِ تذهبين لبيت أمّي بحجّة أنّ ماكينة الخياطة لديّ غير مجهّزة كالتي لدى أمّي.

حسين سيتزوّج يا نادية! نعمْ ما تقرئينه صحيح.

هل تعلمين سيتزوّج مَن؟ سيتزوّج أميرة صديقتي... نعمْ والله أميرة، صديقة عمري، مَن كنت أحبّها أكثرَ ممّا أحببتُ أختي شقيقتي! مَن كانت تطّلع على تفاصيل حياتي اليومية دونًا عن كلّ الناس.

لا أدري كيف حدثَ هذا، أو متى؟ لكنّي علمتُ بالخبر منذ سويعات، أشعرُ بأنّني سأموت ولا أعرف كيف أواجههم، لكنّي لنْ أظلّ مكتوفة الأيدي هكذا... ليتَكِ كنتِ إلى جواري الآن يا نادية.

بسمة

*****

نادية

عساكِ بخيرٍ حال يا حبيبتي!

أحتاجُك ضروريّ يا نادية، المجنونُ زوجُ صديقتنا بسمة بثّ إشاعةً أنّه سيتزوّج بي، ولا أدري لمَ فعلَ هذا؟ حادثتني بسمة وهي مُنهارة، وطلبتْ منّي مفارقتَها إلى الأبد، وقالت لي كلامًا جرحني كثيرًا، نعمْ أنا مطلّقة... ولكنّي لا أنظرُ لأزواج صديقاتي، نعمْ أنا مطلّقة... لكنّي لن أخونَ ما كان بيني وبين صديقتي من عشرة عمر ليس بقصير، نعمْ أنا مطلّقة... لكنّي إنْ أحببت الزّواج فلن أتزوّجَ بهذا الجشع وهذه البشاعة.

ذهبتُ إلى بسمة مباشرةً بعدما كلّمتني، وكانت مُهتاجة، حتّى أنّها كادت تضربُني، ولكنّني احتضنتها وأقسمتُ لها بالله وبكلّ ما بيننا من

ذكريات، وبطفْلي الذي ماتَ رضيعًا أنيّ لا أخون... أنا أعذرُها ولكنْ علينا أن نفكّر بهدوء... لمَ فعل هذا المخبولُ هذا؟

لم نتمكّن من الوصول لحل حتّى بعد عودتي إلى بيت أمّي، ولكنّني استحلفتُها بالله أنْ تهدأ، ولا تتحدّث عن الأمرِ إلى زوجها، وتتعمّد أن تذكرَ له أنّني كنتُ معها اليوم، وليتعذّب بنارٍ تحرقه حتّى الجحيم.

أميرة

14

عزيزتنا الغالية نادية

أكتبُ إليك أنا وأختاك نهلة ونسمة، نعلم أنّنا أمامَ الله وأمامَك مقصّرون، ولكنْ ليس في الإمكان أبدع ممّا كان، لم نكنْ في المنزل ساعةَ خرج حماده ليلقَى حتفه، وكمْ بحثنا، وبحثنا حتّى فجعتْنا حقيقة موتِه.

سامحينا يا غاليتي مرّتين؛ مرّةً لأنّنا فرطنا في حماده دونَ قصد، ومرّة ثانية حينما صمتْنا عن مصارحتِك بموته، ف والله لم نستطعْ، حتّى أمّك أصابها صمت، وانْزوتْ في غرفتها حزينةً باكيةً، تولول، وتقول: "أضعتُم قرّة عينِ ابنتي".

إخوتك

نبيل–نهلة–نسمة

15

نادية

سلامي وأشواقي وقُبلاتي أرسلها لكِ عبر الأثير هههههه... كان والدي يرسلُ لنا دائمًا هذه التحية كمقدّمة لرسائله، كيف حالك يا نادية؟

أنا بخير حالٍ، أرسل إليكِ رسالتي هذه من الكويْت، مع الأسف سافرتُ إليها عائدةً بعدما تنعّمت أنا والأولاد بحضن أبي وأمّي وعائلتي، ولكنِ انتهى أمر الاحتلال[1]، وعادت الكويتُ دولة حرّة... لا أكذبُ عليكِ وأقول إنّنا نشعر بالأمان، ولكنْ أنتِ تعرفينني؛ لا أهابُ ولا أخاف، وآخذ الدنيا ببساطة.

زوجي دائمُ القلق، حتّى أنّه أصبح يطالبُ الأولاد بالسّكوت طوال فترةِ وجوده بالمنزل، تعرفين قرودي! وكمْ هُم أشقياء، وأنا لا أعترضُ على هذا؛ فهذا يجعل من البيت جنّة ساعتيْن كلّ يوم.

---

1 الغزو العراقي للكويت: هجوم شنّه الجيش العراقي على الكويت في 2 أغسطس 1990, واستغرقتِ العمليّة العسكرية يومين وانتهت باستيلاء القوّات العراقية على كامل الأراضي الكويتية في 4 أغسطس, ثمّ شكّلت حكومة صورية برئاسة العقيد علاء حسين خلال 4 – 8 أغسطس تحت مسمّى جمهورية الكويت, ثمّ أعلنت الحكومة العراقية يوم 9 أغسطس 1990 ضمّ الكويت للعراق, وإلغاء جميع السّفارات الدّولية في الكويت، إلى جانب إعلان الكويت المحافظة رقم 19 للعراق, وتغيير أسماء الشوارع والمنشآت, ومنها تغيير اسم العاصمة الكويتية.

كلّ اعتراضي أنْ أنظر إليه وهو شاردٌ أو يقرأ الجريدة لأقول له: "يا ريت يا بابا تقول لأحمد يدخل يذاكر." فيقول لابني: "اسمع كلام ماما وادخل نام." فأردّ صارخة: " ماذا تقول يا رجل؟ نااااام!"

ثمّ أصمت قائلة: "عوّض عليّا عوض الصّابرين يا رب" وأتذكّر عقيلة راتب في فيلم قديمٍ حينما كانت تقول: "مش مصيبة ولا اتنين، دول تلاتة يا ربّي" فتنظر لها آخرُ العنقود قائلة: "أربعة يا ماما."!

آه... على فكرة، أنا حامل، وسألت الله ابنةً في بيت الرّجال والصّبيان هذا، ولو رزقتُ بصبيّ ولد سأترُك المنزل والبلد، وأعود لحضن بابا وماما، وعلى رأي المثل"يا بيت أبويا كتّر خيرك، بتربي وتكبّر وتدّي لغيرك".

أشعرُ بكِ تضحكين وهذا يسْعدني، اضحكي وابْتسمي؛ فلنَا في الضّحك كلّ الرّاحة، ودعي عنكِ الحزن واطمئنّي، فالله لن يضيّعكِ.

سعاد

16

عزيزتي مدام أحلام

كيف حالُكِ يا سيّدتي؟ لا أعرف ماذا أكتبُ إليك؟ سمعتُ الخبر، وبكى قلبي على ابنكِ مثْلما بكى على حماده وزيادة... مصابُنا كبير في أولادنا، ولكنّ مصابك أكبرُ؛ فحماده مات طفلاً، أمّا ولدك-رحمه الله-فقد ماتَ عريسًا... أعلمُ أنّ كلامي سيجدّد الأحزان التي لا تنطفئ، ولكنْ ما باليد حيلة... كوني بخير، وصبّري نفسَك أنّ لقاءنا بهم سيكون في الجنّة بإذن الله.

أراكِ على خير.

نادية

*****

عزيزتي نادية

شكرًا لرسالتِك الطّيبة، وسامحيني لمْ أرسلْ لك تعزيةً في الغالي حماده، جاءتْ وفاتهما في وقتٍ واحد، ولربّما في يومٍ واحد، وانطلقا معًا في رحلةٍ إلى جنّة ربّي، لا أدري ماذا أكتب، ولكنْ ربّما إنْ كتبتُ لكِ وأخرجتُ ما بقلبي لربّما هدأتْ روحي؛ فلا أعذّبه ببكائي وحزني، فقد كان تامر أوّلَ فرحتي بعد سنوات من العلاج، وحين رزقني اللهُ به شعرتُ أنّه يكافئ صبري، وحين رُزقتُ بأختِه مِن بعده شعرتُ بالرّضا والامتنان.

كان يحلمُ منذُ طفولته أنْ يكون ضابطَ شرطة؛ يدافع عن المظلومين، ويقتصّ لهم، كان يجبرنا أنا ووالدُه على شراء بدلةِ ضابط في كلّ عيد، وكمْ لعب مع أخته وأبناءِ العائلة (عسكر وحرامية) ورفض تمامًا أنْ يبدّل دور العسكر بدوْر الحرامي؛ وحينما انضمّ لكليّة الشرطة وتركنا، صار البيتُ خاليًا كتومًا حتّى يعود في إجازة ليجعله ممتلئًا بالضّحكات سعيدًا.

ذهبتُ أنا وأختُه لحفل تخرّجه... تذكرينَ أنّ زوجي توفّيَ قبل تخرّجه بعام وربّما هي رحمةٌ من ربّي له... ليتني أنا الأخرى سبقتُه موتًا.

كمْ كنتُ فخورة بأنّه حقّق حلمه، ولكنّي حينما رأيته بزيّ الضّابط خفق قلبي منقبضًا، وتوجّست، لكنّي عزوتُ ذلك لخوفي الدّائم عليه، وكتمتُ مخاوفي، وفرحت معه وله.

تسلّم تامر عملَه معنا في الإسكندرية، وكمْ سعدت، خاصّة أنّه سيعمل كضابط مرورٍ بعيدًا عن أذى اللّصوص وعن أحلامِه في القبض عليهم، وبقدْر سعادتي كان حزنُه ومحاولاتُه لتغيير وظيفته بلا جدْوى، فرضَخَ للواقع.

ويشاء اللهُ أن تمرّ شهور قلائل، وإذا بسيارةٍ لإرهابيّين تفرّ من إحدى اللجان، ويشاء الله أن تكونَ في طريقه، وتصلُه الأوامرُ باللحاق بها، ويلحقُ بها ويتمكّن من تعطيلها؛ فيفتح عليه أحدُهم النار ليسقطَ صريعًا مِن فوق دراجته النّارية في لحظة، ويتمكّن الضبّاط من القبض على الإرهابيّين بفضله.

مات تامر وهو يقبضُ على الأشرار مثلما كان يحلمُ دومًا، مات وذهبَ إلى قبره شهيدًا ملفوفًا بعلم مصر، مات وتركني أسأله: "هل رضيتَ الآن يا بنيّ حينما حقّقت حلمك؟ كيف تتركني وأختك نعاني هكذا؟"

لم أعدْ أستطيع الذّهاب للمدرسة للتّدريس لشبابٍ في المرحلة الثانوية؛ فلربّما سأرى فيهم من يتمنّى أنْ يكون مثله ضابطًا... نرمين مُصابة بانهيار، ولم تستطع حضورَ امتحانات كليّتها، وستتأخّر عامًا في كليّة الطب، ولربّما لن تستطيع أن تستمرّ في دراستها، فبعدما رأته مسجّى في دمائه ستراه في كلّ جريح.

ما زلتُ أجلس أحادثه، ويخاف الجميعُ على عقلي، ولكنْ كيف لأمّ فقدت قطعةً من روحها وقلبِها أن يبقى لها عقل، وكيف لهم أنْ يقولوا لي أحلام، فالأحلامُ ماتت بموت ابني... أحاولُ التّماسكَ من أجل نيرمين، ولكنّنا كلّما جلسنا معًا صالتِ الذّكريات وجالتْ فينا طعنًا.

لا أدري... هل أنت قريبةٌ من مكّة يا نادية؟ هل تستطيعين الذّهاب لأداء العمرة لحماده ولتامر؟ حاولتُ التّقديم على عمرة، ولكنّني لا أستطيع الذّهاب دونَ مَحْرم، وأخي لا يستطيع الذّهاب في الوقت الحالي، ولكنّه وعدني أنْ نذهب في العام المقبل إنْ شاء الله... ليتَكِ تستطيعين.

عذري الوحيدُ في أوجاعي التي ولا بدّ أنّني مزّقت بها قلبَك أنّك أمّ فقدتْ ابنها مثلي، وتعلم جيدًا أحاسيسَ الفقد.

أحلام

*****

تلغراف

أحلام

سافرتُ إلى مكّة المكرّمة مع الأميرة العنود وأبيها لقضاءِ عمراتٍ لي ولحماده ولتامر، أسأل الله أن يتقبّلهم منّي.

نادية

17

جلسَ هاشم إلى مكتبِه يفكّر في خطوته المقبلة مع نادية، الزّواج لا حلّ سوى الزّواج بها في هذه البلاد، ثمّ طلاقها بعد عدّة أشهر قبل نزوله في أجازته السّنوية، والتّشديد عليها بالتكتّم على الموضوع تمامًا.

*****

وقفت نادية حائرةً أمام محمود:

- ماذا أفعل يا محمود؟

- الحقير يتزوّجك بالتهديد والإكراه؟ يهدّدك بفضيحة قد تتسبّب في جلْدك وترحيلك من البلاد أو إعدامك؟ عليك باللّجوء فورًا إلى الأميرة قبل سفرِها إلى الخارج مع الأمير وهذا الوغد، أنا على ثقةٍ من أنّها ستتدبّر أمرك؛ فهي تحبّك، وهي ذكية للغاية.

- أسألك الدّعاء.

- حاضرْ يا ابنةَ بلدي.

- عجيبٌ أمرُ الدنيا، ابنُ بلدٍ حلال مصفّى، وابنُ بلدٍ شيطانٌ راكبه رجيم.

*****

، وقفتْ نادية حائرةً أمامَ العنود بعد أن حكتْ لها كلّ شيء:

- هذا يعني أنّني سأخسرُك في خلال أيام.

- كيف هذا؟

- أوّلاً سننشر خبرًا حلوًا ينتشرُ في القصر.

- يا ربّ يحلّي أيامك.

- أنا حامل.

- مبروك... ألف مبروك.

تبسّمت الأميرة في وجْه نادية:

- أنا لستُ بحامل، سنقول هذا لأنّ الحملَ يتعبني، ولن أستطيع الانضمامَ إلى زوجي في رحلته، فيسافرُ مع الشّيطان هاشم، ونقوم بإرسالك إلى مصر مباشرة، ستذهبينَ إلى أمّي، ولا تذهبي أبدًا لبيت أمّك حتّى تنتهي عدّتُك كيْلا يردّك زوجك إلى ذمّته، ما لمْ تكوني تريدين العودةَ له.

- حاشا لله.

تبتسم العنود بخبثٍ قائلة:

- كنتُ سأصير محاميّةً مشهورة مثل أمّي لوْلا هذه الزيجة.

- زوجُك يحبّك.

- أيّ زوج هذا وأيّ زواج؟ أقسم لك لنْ يكون لأبنائي هذا النّوع من الزّواج أبدًا.

- حبيبتي، أشعرُ بمعاناتك؛ ولكنْ كنت أصمتُ احترامًا لصمتك، ولكنْ ماذا ستقولين له بعد عودته حينما يعلم أنّك لستِ حاملاً؟

- سأتصرّف لا تقلقي، عندي لك هديةٌ حينما ستراها أمّي ستعلم مدى حبّي واهتمامي بكِ، وستضعُك في عينها، تفضّلي.

- ولكن...

- لا يوجد ولكن، هي هديةٌ من عزيزٍ إلى قلبي سوف أحكي لك عنْه في رسالة حينما تستقرّين في مصرَ إنْ شاء الله، وسألقاك كلّما أتيت إلى مصر، هذا وعد.

18

وقفَ محمود أمامَ نادية بعد أنْ تناول الجميعُ وجبةَ العشاء، وقاموا بتوديعها:

- خُذي هذه الأشياء، والرّسالة قومِي بإيصالها إذا سمحتِ إلى أمّي يا نادية وأختيّ، بيتنا بعيدٌ كلّ البُعد عن بيتك، وستكونينَ في أمان إذا أردتِ الجلوس معهم حتّى تنتهي العدّة.

ردّت نادية بثقة:

- سأظلّ عند الأستاذة هدى كما وعدتُ الأميرة، لا تخشَ عليّ، اطمئنّ، وسأرسل لكَ رسالةً كلّ أسبوع.

- بل كلّ يوم.

- كلّ يوم؟

- نعمْ، وهذه عشرُ رسائل منّي لكِ مقدّمًا.

تضحكُ نادية حتّى تدمع عيناها:

- أنا أضحكُ معك ضحكًا أفتقدُه منذُ رحل أبي.

- ويا ربّ تظلّين تضحكين هكذا دومًا، هيّا قومي وابدئي في قراءة رسالةٍ منّي يوميًّا، والرّد عليها حالاً.

- لكّني سأسافر غدًا.

- سآخذُها منك غدًا يا نفرتيتي.
- ماذا عن نفرتيتي هذه؟
- لم يئنِ الأوان.

19

نادية

تسعةُ أشهر أمضيناها معًا في هذا القصر، عرفتُ فيهم الكثيرَ عنك، تقاربنا كأخٍ وأخته، كأصدقاء، كرفاقِ غربة، لكنْ دومًا اللّحظات الجميلة تنقضي بسرعة.

عزائي أنّني سأسافر إلى مصر قريبًا، وسيكونُ عندها لنا لقاءات وأحاديث مجدّدًا، وحتى نلتقي سأظلّ أكتب لك في كلّ يومٍ رسالة، أنا مَن أحكي لكِ فيها حكاية، حكاية اليوم عن رامي وثومة، بالطّبع تعلمين ثومة، وكثيرًا ما سمعنا معًا في السّيارة أغاني لها؛ لكنْ هل تعلمين مَن هو رامي؟

كان رامي شاعرًا للحبّ، وكان يكتب الأغاني لأمّ كلثوم، ويحبّها حبًّا جمًّا، غنّت له ثومه مائة وعشر أغنية، منهم أغنيةٌ أسمعها الآنَ وأنا في السيارة.

عوّدت عيني... على لقياك... وقلبي سلّم لك أمري

أشوف هَنَا عنيّا... في نظرتَكْ ليّا

والقَى نعيم قلبي... يوم ما الْتقيك جنبي

وانْ مرّ يوم مِن غير رؤياك... ما ينحسبْش من عمري.

الحكاية بقى بتاعتْهم يا نفرتيتي هحكيها لك، ولكنْ لا تنامي قبل الردّ على رسالتي.

أمّ كلثوم كانت مرّة رايحة روز اليوسف في زيارة، لما وصلت لقت أحمد رامي نازل من هناك اتْقابلوا... هي عند أوّل درجة تحت، وهو عند آخر درجة

فوق، وقفوا ثوان... ذوقيًّا يعني... كلّ واحد مستنّي التاني ياخد طريقُه الأوّل، هي تطلع أو هو ينزل، بس محدّش خد المبادرة.

قالت له: "اتفضّل انزل انتَ الأوّل" فردّ عليها: "أنزل ازّاي وروحي طالعة؟"

هل صادفتِ يومًا حبًّا هكذا يا نادية؟ هل لاحظتِ جمالَ كلماته، وكيف تنبع من قلبِه المحب؟ أسأل الله لك حبًّا كحبّ رامي لثومة وحبيبًا مثله... ستكونُ رسالتي القادمة عنْ أحبّ ما أملك، أسرتي الصّغيرة، سأحدّثك عنهم لتلتقي بهم وكأنّك تعرفينهم.

تصبحينَ على خير.

محمود

ملحوظة:

نادية، هذا عنوانُ الحاج بدوي، صاحب محلّ الأقمشة هنا، الأفضل لكِ أن ترسلي لي عليه بعيدًا عن المدْعو هاشم وجواسيسه.

*****

محمود

أكتبُ لك رسالتي الأخيرة في ليلتي الأخيرة في القصر... سأفتقدُكم جميعًا، لم يأتِ الرحيل دومًا بعدما نتآلف مع النّاس ونقتربُ منهم؟ كم كنتُ أتمنّى لو أستمرّ في العمل هنا، ولكنّ الظّروف تقتضي الرّحيل، وأشتاق ابنيّ التوأم... سأحدّثك –أنا أيضًا–عن ابنيّ الليلة:

أطلقنا عليهما اسمي والدي ووالد سعد، أحمد وعلي، هما في الثامنة من عمرهما، طفلان جميلان يقولون إنّهما نسخةٌ كربونية منّي، ولكنّي أراهما أجملَ بكثير، لا أريدهما أنْ يعيشا مثلما عاش أبوهم مستَهترًا غير متعلّم لا يترك مجالسَ الحشيش، أدعو الله من قلبي أنْ أستطيع تربيتَهما بكلّ خير، وأن أراهما رجليْن صالحين.

أعجبني كثيرًا ما كتبتُه عن رامي وأمّ كلثوم، ولكنّ هذا كان زمنًا جميلًا انقضى، تُرى هل يعود؟ ليتني أملُك نصفَ تفاؤلك يا محمود.

أراكَ في الصّباح حتّى نذهب إلى المطار.

تصبح على خير.

نادية

*****

تلغراف...

محمود، هذا عنواني لدى الأستاذة هدى، أنا بكلّ خير، دمت بخير.

20

نادية

كيف أصبحتِ؟ وكيف الحال لدى الأستاذة هدى؟

اتّفقنا أنْ أحدّثك اليوم عن أسرتي الصّغيرة، أمّي الحبيبة امرأةٌ بسيطة، كانت تعمل لدى طبيبٍ في منطقتِنا، وحينما أنجبتْنا رفضَ والدي استمرارَها في العمل؛ فهو يعلم جيدًا عبء تربية أبناءٍ في غياب أبٍ يجاهد في الصّباح في العمل الحكومي المجحف، وباقي اليوم على التاكسي.

أخواتي الآن في الجامعة، ولكنّهنّ كسولاتٌ، يدرسنَ واضعاتٍ نصبَ أعينهنّ أنّ الزّواج والأمومة أهمّ من العمل والتّعب كما يقولون، وأنا حقًّا أتفهّم كلامهنّ، وأثق أنّ تربية وإعداد البنات ليكنّ أمهاتٍ متعلّمات مثقّفات هو خيرُ أمرٍ في كلّ الأزمان.

علّمتنا أمّي وأدّبتنا، وساهم أبي كثيرًا في تقويمي وتثقيفي مثلَ أبيك، أمّا أنا فأخذت هذا الدور مع أخواتي البنات، كنت معلّمهنّ، وأخاهنّ الأكبر، وصديقَهنّ، ولكنْ لا أخْفيك سرًّا، منذ سافرت تقلّص دوري؛ فأنا لا أجيد الرّسائل مثلك، أعلمُ ما ستقولين أنّني أصبحت أجيدُها الآن، نعمْ هذا صحيح، وسأعودُ لمراسلتهنّ دومًا.

أرسلتُ إلى أمّي هديةً أتمنّى أن تعجبها، وأنْ تحكي لي بالتّفصيل ردّةَ فعْلها فللهدية قصّة، دومًا كنت أحبّ أنْ أهديها ولوْ أبسط الهدايا، وكانت

تقول لي دومًا أن الهديةُ البسيطة أجملُ من أغلى الهدايا؛ فهي تعبّر عن المشاعر والقلوب... أهديتُها في عيد الأمّ مرّة من المرّات رسالة هي حكايةٌ أعلمُ أنّها ستعجبُك... حكاية أغنية ستّ الحبايب... اقرئيها معي.

تعود قصّتها الطّريفة لسّتينيّات القرن الماضي حين ذهب الشّاعر الغنائي حسين السيد لزيارة والدته في عيد الأم، التي كانت تسكنُ في شقّة في الطّابق السادس في أحد الأحياء الشّعبية؛ وحالما انتهى من صعودِ الدّرج، تذكّر أنّه لم يحضرْ هديّةَ عيد الأم، لم يستطعْ أنْ يتخيّل أنّ عليه النّزول ستّة طوابق لشراء هديّة، ثمّ العودة للطّابق السّادس مرّة أخرى، فالدّرج بدا طويلاً ومرهقًا في تلك اللّحظة، وللخروج من المأزق، قرّر كتابة شعرٍ غنائيّ واقفًا على باب الشقة، عندما فتحت والدته الباب قام بإلقاءِ كلمات الأغنية عليها، فرحتِ الأمّ بالهدية، فوعدها بأنها ستسمعها في اليوم التالي على الإذاعة المصرية بصوت غنائي جميل، قام بالاتصال بالموسيقار مُحَمَّد عبد الوهاب، حيث أعطاه كلمات الأغنية علي الهاتف، أعجبت الكلمات عبد الوهاب، فلحنها بدقائق، اتصل عبد الوهاب بالمطربة فايزة أحمد لتغنيها، في اليوم التالي كانت فايزة أحمد قد حفظتها وغنتها في الإذاعة؛ وبذلك أوفى حسين السيد بوعده لوالدته.

*****

ست الحبايب يا حبيبة.... يا أغلى من روحي ودمّي

يا حنيّنة وكلّك طيبة.... يا ربّ خليكي يا أمّي

زمان سهرتِ وتعبتِ وشلتِ من عمري ليالي

ولسّه برضه دلوقتي بتحملي الهمّ بدالي

أنام وتسهري.... وتباتِ تفكري

وتصحي من الآدان وتيجي تشقّري

تعيشي ليّ يا حبيبتي يا أمّي.... ويدوم لي رضاكِ

أنا روحي من روحك أنتِ وعايشه... من سرّ دعاكِ

بتحسّي بفرحتي قبل الهنا بسنة

وتحسّي بشكوتي من قبل ما احسّ انا

يا ربّ يخليكِ يا أمّي يا ربّ يخليكِ يا أمّي

لو عشت طول عمري أوفّي جمايلك... الغالية عليّ

أجيب منين عُمر يكفّي وألاقي فين أغلى هدية

نور عيني ومهجتي... وحياتي ودنيتي

لو ترضي تقبليهم دول همّا هديتي

يا ربّ يخليكِ يا أمّي... ستّ الحبايب يا حبيبة.

*****

أعلمُ الآن أنّ دموعك بلّلت رسالتي لأنّك تحنّين لأمّك وأبنائك... أعلمُ كم أنتِ جميلةُ القلب كابنةٍ وأمّ، ولكنْ صبرًا... ألا تثقين بأنّه في يوم

الصّيام الطّويل يأتي المغرب؟ وكذلك سترينهم قريبًا بعد أيّام صبرٍ جميل، احتضني أمّي وإخوتي عنّي، وقولي لهم قريبًا سأكون معهم إنْ شاء الله.

محمود

*****

محمود

مسّاك الله بكلّ خير، وهوّن عليك أيّام الغربة... أنا بكلّ خير لدى السّيدة هدى... هي نعْمَ الأمّ حقًّا... امرأة جميلة، تحاول أنْ تجلس معي ولو ساعةً في الصّباح وأخرى في المساء رغم انشغالها.

لدى الأستاذة هدى مكتبةٌ أتمنّى أن يكون لي مثلها، أقضي يومي كلّه فيها أقرأ وأقرأ، وقد قرأتُ فيها الكثير... قرأتُ ديوان ناجي، وعرفت قصّة قصيدة الأطلال التي غنّتها ثومة، هل ترى أنّني أحاول أن أكون مثّقفة... حتّى أقوم بتنشئة أبنائي مثقّفين مثلك.

اقرأ معي حكايةَ قصيدة الأطلال...

كتبَ إبراهيم ناجي هذه القصيدة في حبّ صباه عندما فارقه، فقد غادرَ ناجي لدراسةِ الطب، وعندما عادَ علم أنّ حبيبته قد تزوّجت، وسمع طرقًا شديدًا على باب منزله في إحدى الليالي، فقام من سريره ليسْتَبين الطّارق، فكان رجلاً يريد طبيبًا لمساعدة زوجتِه التي كانت في حالةِ ولادة

متعسّرة، فأخذ ناجي حقيبته، وذهب مع الرجل إلى بيته، حيث كانت زوجتُه بوضعٍ صعب.

اقتربَ ناجي منها فتعرّف فيها على حبيبته، وكانت المفاجأة شديدة عليه إذ كانت هي حبيبته التي فارقها رغمًا عنه، وقد جمعهما القدر في هذه المصادفة الغريبة... عالجَها ناجي، وتمّت الولادة، وخرج من بيتها بعد أنِ اطمأنّ على صحّتها وصحّة مولودها، وكتب قصيدةَ الأطلال بعد هذه الحادثة الفريدة.

هل لاحظتُ أنّ الشاعر يقول في القصيدةِ:

ومضى كلٌّ إلى غايته ∴ لا تقلْ شئنا فإنّ الله شاء

وأنّ أمّ كلثوم غنّتها (**الحظّ**) **ربّما** لم تحبّ ذكرَ الله في أغنيتها! أعلمُ أنّ فضولك يأكلك تريدُ أن تعرف ردّةَ فعل أمّك لدى رؤيتها للهديّة، تعلّم الصّبر يا رجل، نعمْ غرقتْ رسالتك بدموعي بعدما قرأتُ حكاية عيدِ الأم، ولكنْ كنت سعيدةً لأنّني سأرى أمّك، وأقبّل رأسها، وأشكرُها أنّها أنجبتك يا خيرَ أخٍ وخيرَ صديق... شعرتُ براحة حين دخلتُ بيتكم، وشعرتُ بدفء هذا البيت، وسألتُ الله الرّحمة لوالدك، وحينما احتضنتني أمّك بكيت، فأخذت تربّت كتفي، فعلمتُ أنّك حدّثتها عنّي كثيرًا.

أخواتك أيضًا أحببتهنّ، وشعرت بهنّ قريباتٍ لي، وتواعدتُ معهنّ على الحديث دومًا، ولو عبر الهاتف مؤقتًا لأنّ الأستاذة هدى طلبتْ منّي ألا أذهب كثيرًا إلى بيتكم خوفًا من مراقبة هاشم له.

حينما أمسكتْ أمّك بالصّورة والإطارِ الفضّي، وقرأت كلمات ستّ الحبايب، احتضنتني وقالت لي:

- تسلم إيدك يا ريحةِ الحبايب.

وروتْ لي حكاية عيد الأمّ، وسمعتُها منها، وشعرت وكأنّك أنتَ مَن تحكيها لي، وتضاحكنا وبكينا، تعلمُ أنتَ النّساء؛ يضحكنَ ويبكينَ في آنٍ واحد... أحببتُ أسرتك كثيرًا، وأتمنّى أنْ أزورها قريبًا بلا خوف.

كنْ بخير يا محمود.

نادية

*****

نادية

يعجزُ لساني عن شكرك يا نادية، سعدتُ كثيرًا برسالتك، وسعدتُ بأخبار أمّي والبنات، وسعدت أيضًا بقراءاتك، وأعتذرُ منكِ إنْ كنت فهمتني خطئًا حينما تحدّثت عن أخواتي، فأنتِ نعْمَ المرأة التي تحاول التعلّم، وأثقُ من أنّه سيكون لأبنائك شأنٌ في المستقبل.

أكتبُ إليك هذه الرسالة على عجل؛ فأنا ذاهبٌ في رحلةٍ مع الأمير وأسرته إلى مكّة والمدينة.

ملحوظة:

حين تصلُك رسالتي هذه، لا تردّي عليها حتّى أرسل لك ثانية.

محمود

الفصلُ الثاني

1

يرنّ جرسُ الهاتف لتردّ نادية:

- آلو.

- نفرتيتي.

- محمود، أينَ أنتَ؟ قلقتُ عليك كثيرًا.

- أنا بخير حالٍ يا نادية، وصلت إلى مصر نهائيًّا منذ ساعة، وأحببت أنْ أسمع صوتك لأطمئنّ عليك، وأطمئنك.

- الحمد لله على السّلامة، عدتَ إلى بلدك وحضنِ أمّك وأخواتك بالخير يا ربّ.

- ولكِ مثلُ هذا يا نادية، لديّ أشياء جلبتُها من الأميرة للأستاذة هدى، وأودّ أن أراك فهل تستأذنينها في زيارة؟

- إنْ شاء الله عند عودتِها في المساء... سأرى متى تستطيع استقبالك، وأحادثك.

- طمئنيني عليك هل أنتِ بخير؟

- بخير حال، أسأل الله الصّبر، وأنْ يربط على قلبي حتّى يردّني إلى أهلي.

- ذهبتُ إلى العمرة منذ يومين، ودعوتُ الله لك.

- أسأل الله أن يجيب كلّ دعائك يا محمود.

- أنا الآنَ مضطرّ لتركك حيث أتى بعضُ الأهل لزيارتي.

- سأتّصل بكَ في المساء إنْ شاء الله.

يذهبُ محمود للقاءِ نادية في منزل السيدة هدى... تبحث عيناه عن نادية، وجسدُه ينتفض لرؤيتها فترحب به بخجل قائلة:

- شكرًا يا محمود على هديّتك، سأحتفظ بها ما دمتُ حيّة.

- أعجبتْك؟

- طبعًا. مصحفٌ، وسبحةٌ، وإسدالٌ للصّلاة... هُم من أجمل الأشياء، وكذلك ماءُ زمزم شربتُ منه، وسأترك ما تبقّى لأمّي والأولاد.

- معي لك هديةٌ أخرى، ولكنْ ليس وقتها الآن، ربّما قريبًا.

- يا محمود، ألم تعلمْ أنّ للمرأة فضولاً قد يأكلها!

يضحكُ محمود ويقول:

- انتظري قليلاً، فاتَ الكثير ولم يتبقّ سوى القليل.

- تعلّمت صبرَ أيوب هذه الأيام.

- الله يقوّيك... أترُكُكِ على خير.

يلتفتُ بقلبه إلى نادية، ويقول:

– نادية... بعد غدٍ تنقضي عدّتُك والحمدُ لله، وستعودين إلى بيتك آمنة، ولكنْ لي عندك طلبٌ خاصّ.

- عيني لك.

- سلمتْ عيناك نفرتيتي... أريد أنْ أراك بعد غدٍ صباحًا ثانية؛ إذْ أنّني أريد أنْ أستشيرك في موضوعٍ هام.

- سأبلغُ الأستاذة هدى، وسأنتظرك إنْ شاء الله.

- ربّي يكتب الخير.

*****

همس قلب محمود بصمت عند اللقاء الثاني، ثم محمود زمامَ الحديث قائلاً:

- لديّ فكرة أتمنّى أن تعجبك... تحتَ بيتنا محلٌّ نمتلكه، أريدُك شريكة فيه، ليكون مشغلاً للخياطة، وسأقوم أنا بالإدارة، وتسويق الموديلات لمحلات الملابس، ستتوقّفين عن الذّهاب للعمل في بيوت النّاس، وسيأتون هُم إليك من كلّ مكان.

- تعاملني كما لو كنتُ خيّاطةً ماهرة!

- أنتِ كذلك، لقد شاهدتُ ما قمتِ بخياطته لأختي، وأعجبني كثيرًا.

- وكتاباتُك؟ ألم نتّفق على أنْ تعرضها على الجرائد والمجلات؟

- سأقوم بالتّسويق لعملك وعملي معًا، والكتابةُ لا تحتاج للتفرّغ، وسيكون لديّ وقت لها... ما رأيك؟

- لا يوجد معي المال لمشاركتك.

- ومَن طلبَ منك مالاً؟ أنتِ ستقومين بالابتكار والخياطة والإشراف على الفتيات اللاتي سيعملنَ معك، وأنا سأمولك.

- أنتَ فعلاً نعْمَ الأخُ يا محمود.

تشجع محمود قائلاً:

- نادية، أظنّ حان الوقت أنْ أقول لك معنى نفرتيتي، ونرى موضوعَ الأخوة هذا... حين أتيتِ إلى المِملكة، ودخلت علينا غرفة الطّعام وجدتُ نفسي أردّد "نفرتيتي" ومعنى نفرتيتي (الجميلةُ أتَت) ما أجملَها حُمرة خجلِك يا نفرتيتي... لم أكنْ أظنّ أنّه مازال هناك نساءٌ يخجلن من كلمات التودّد، وبعدما علمتُ أنّك زوجةٌ وأم، عاهدتُ الله أنْ أعاملك كأختٍ ثالثة لي... لكن الآن وبعدَ انتهاء عدّتك، ويقيني أنّك لن تعودي لزوجك إنْ عاد طالبًا ودّك؛ فهل تقبلينَ بي زوجًا وصديقًا حتّى آخر العمر؟

ازدادَ خجل نادية، واصطبغ خدّاها حمرةً، وقالت:

- كيف لي الزّواج بك وأنتَ خرّيج الجامعة وأنا مجرّد خيّاطة ملابس، وأمّي وأخواتي يعملنَ خادمات في البيوت؟

- يتشرّف خرّيج الجامعة بأنّ أمّه أميّة، لا تقرأ، ولا تكتب، خرّيج الجامعة مزّق شهادتَه وعملَ كسائق، ويتشرّف ويهنأ إنْ وافقتِ به زوجًا.

- ولكنْك تكتبُ الآن، وسيكون لك شأنٌ وسط هذا العالم المثقف.

- وستكونينَ أنتِ مُلهمتي دومًا، وأوّل مَن يقرأ لي قبلَ العالم كله، وسأظلّ فخورًا بك وبمثابرتك وبشخصيتك الجميلة المثقّفة مدى حياتي.

- أخاف من عودةِ سعد فيؤذينا، أو مِن هذا البعيد المتوحّش هاشم.

- تخافين وأنتِ معي؟

- بل أخاف عليك.

- إذًا... أنا على حقّ... وإحساسي أنّكِ تبادلينني المشاعرَ صادق... حانَ الوقت الآن لإهدائك الهديّة التي أحضرتها لك من السّعودية.

- الله... ما أجملها!

- هي شبكةٌ بسيطة لا تُقارن بقيمتك الغالية، وإنْ شاء الله أعوّضك عنها الكثير.

- عوّضتني بالكثير بكَ يا محمود، ويشهد الله على كلامي هذا.

- إذًا... فلنبشّر الأستاذة هدى، ولنذهب لشراء خاتمي الزّواج، ونكتب الكتابَ، لا أريد عودتك إلى أهلك إلا وأنت زوجتي.

تبتسم نادية وتقول:

- ربّي كريم!

- إذًا... نقول مبروك؟

2

جلسَ محمود إلى جوار نادية على الرّمل، واضعًا ذراعه حول كتفيْها، وأخذ ينظر إلى موج البحر، ثمّ ينظرُ إليها وهي تختبئ في حضنِه ممتنّة، وكأنّها في الجنّة، قال لها بصوت خافت:

- غنّي لي أوّل أغنية تخطر على بالك.

تبتسمُ نادية وتغرّد:

طار في الهوا شاشي

وأنتَ ما تدرا شي... يا جدع

طرفه شاور لي... شاور لي عليك...

حكم الهوى ماشي... حكم الهوى ماشي.[1]

يتضاحكا معًا، فتقول نادية:

- واثقة أنا أنّ لديك حكايةَ هذا الأوبريت، قلْ ما لديك، ولكنْ بعد أن تغنّي لي أوّل أغنية تخطر على بالك.

يبتسمُ محمود قائلاً:

- صوتي نشاز!

---

[1] أوبريت الليلة الكبيرة: تأليف صلاح جاهين، وتلحين سيد مكاوي، وغناء شفيق جلال ومحمّد رشدي وغيرهما، وإخراج صلاح السّقا. يعدّ أشهرَ أوبريت شعبي مصري بعرائس الماريونيت، قدّم على مسرح العرائس في مصر واصفًا المولد الشّعبي في مصر.

- أبدًا... صوتك جميل يُشْجيني.

لو حكينا يا حبيبي نبتدي منين الحكاية؟

داه احْنا قصّة حبّنا ليها اكتر من بداية

عشنا فيها ياما عشنا، ياما عشنا

دوبنا فيها ياما دوبنا... ياما دوبنا[1]

- نعود للّيلة الكبيرة وحكاياتِها الطّريفة، مصمّم العرائس ناجي شاكر في أحدِ حواراته الصّحفية قال إنّه تعرّف على جاهين في أواخر الخمسينيّات، ونشأت بينهما صداقة، وفي عام 1960 طلب منظّمو المهرجان العالمي للعرائس في بوخارست أن يقدّم المصريون عرضًا للعرائس، وكان ناجي في هذا الوقت من المعجبين بأوبريت اللّيلة الكبيرة الذي تُذيعه الإذاعة المصرية، فاقترح على جاهين ومكّاوي تحويله إلى مسرحيةِ عرائس، لكنّ تخوّف جاهين من هذه الخطوة في البداية، ثم وافق تحتَ إلحاح ناجي، ومن الصّعوبات التي واجهت الأوبريت إعداد 45 عروسة بشخصيّات مختلفة وتدريب محرّكين عليها، وتحويل الأغنية من 10 دقائق إلى 30 دقيقة

[1] أغنية نبتدي منين الحكاية، الكلمات لمحمد حمزة والألحان للموسيقار محمّد عبد الوهاب، غنّاها عبد الحليم حافظ عام، ١٩٧٥.

في أقلّ من ستّة أشهر. ولم تتوقّف الصّعوبات مع ذلك؛ فتوفيرُ مكانٍ لإقامة العرض لم يكنْ بالسّهولة المتوقّعة، ليضطرّ صنّاع الأوبريت إلى عرضه في بدروم قصر عابدين، ثمّ انتقلوا إلى بدروم دار الأوبرا، ومنهما إلى خيمة في حديقةِ مسرح الموسيقى العربية، إلى أنِ استطاعوا الخروج من هذه الأزمة بإضافة الضّلع الأخير لليلة الكبيرة... المخرج صلاح السقا... ليعرض الأوبريت على مسرح العرائس بالأزبكية.

نظرتْ نادية إلى مجمود في سعادة:

- يحفظْكَ ربّي، أنتَ تعلم الكثيرَ الكثير.

- إلا أمر واحد فقط.

- ما هو؟

- أريدً أن أعرفَ مساحة حبّكِ لي في قلبِك.

ردّت نادية ضاحكة:

- فدّان وثلاثة قراريط.

يضحكُ محمود قائلاً:

- فقط؟!

- مكانُك في القلب... القلب كلّه يا محمود.

- هـذا يعـني أنّـني أشـغله كلّـه مثلمـا أنـتِ متربّعـة علـى عـرش القلـب يا نفرتيتي؟

- تمامًا.

- إذًا، أنا أعرف كلّ الأمور، هل لدى مولاتي أسئلةٌ أخرى؟

- سؤال واحد فقط.

- الأمرُ لك مولاتي.

- تتـوقُ نفسـي إلى اليوسـفي ونحـنُ في الصـيف ولا يوجـد يوسـفي، فهـل سيأتينا الجنينُ بوحمةٍ في حجمِها؟

ردّ محمود مبتسمًا:

- لا، علينا أنْ نقلب الدّنيا ونذهب إلى بائع الفاكهة الذي يبيع فاكهةً مجمّدة للسّيدات اللائي يتوحّمن في الفصول المختلفة... ولكنْ هل تريدين صبيًّا أم صبيّة؟ أنا أريد ابنةً تشبهُك، وعيونها مثل عيونك، ونطلق عليها مها.

- ألا تريد صبيًّا ليحملَ اسمك؟

- لديّ من الصّبيان اثنان والحمدُ لله.

- بحبّك يا جدع.

يا غزال يا غزال... العشق حلال... دوّبتني دوب... خلّتني خيال.

- محمود، أشتاق شيئًا ما.

- خيرًا مولاتي؟

- أريدُ الذّهاب للقاهرة، وزيارة السيّدة نفيسة والسيّدة زينب والحسين ﷺ.
- ﷺ، ولكنْ ألا تتْعبين؟ خاصّة وأنتِ في شهور حمْلِك الأخيرة!
- إنْ شاء الله تكون رحلةً هينة.
- لك ما تريدين... نذهب أنت وأنا والأولاد رحلةٍ لعدّة أيّام كي أرى أنا وهُم الأهرامات والبرج ومتحف القاهرة وغير ذلك من آثار، وترتاحين أنت في الفندق؛ فهذه الأماكن ستكون مُتعبةَ لك.
- لا مانع لديّ.
- ونذهب في العام القادم إلى الأقصر وأسوان وغيرهما، حيث نفرتيتي ونفرتاري كي تغار الجميلاتُ منك يا أجملَ نفرتيتي.
- أذهبُ وفي يدي طفلٌ رضيع؟
- سيكون معك ثلاثةٌ من الرّجال يحملونها بكلّ حبّ وعوْن.
- مصمّم أنتَ على أنّها فتاة.
- بل أرجو الله أنْ تكون هكذا.

*****

كانت رحلةً سعيدة، صمّمت نادية أنْ لا ترتاح في الفندق، وذهبت معهم في كلّ مكان. وفي آخر ليلة لهم، أيقظت محمود باكية...

- محمود... استيقظ.
- ما بكِ نادية؟
- سألدُ اللّيلة.
- كيفَ هذا؟ أنتِ في شهرك السّابع.
- سيكون المولودُ ابنَ سبعٍ إذًا.
- سأوقظ الأولاد واتّصل بابن خالتي لينصحنا باسْم الطّبيب الذي يقوم بتوليد زوجته، ومستشفى الولادة.

*****

خرجت نادية من غرفة الولادة عند الفجر، تحتضن ابنتَها مها، نظر إليهما محمود قائلاً:

– الحمدُ لله على السّلامة، استعجلتْ هذه الابنةُ في الخروج للدّنيا، وولدت في مدينةٍ غير مدينتها، إنّها ابنةٌ قاهرة.

3

جلسَ محمود محتضنًا نادية وهي تحملُ مها:

- سأحكي لك الآنَ قصّة نفرتيتي.

ردّت نادية بابتسام:

- ستكون أوّلَ حكايةٍ تسمعها مها.
- عاشت نفرتيتي في القرن الرّابع عشر قبل الميلاد، زوجةً للفرعون أخناتون، أحدِ ملوك الأسرة الثّامنة عشر في مصر القديمة، دعا أخناتون لديانةٍ توحيد جديدة سمّيت ديانة آتون، تدعو لعبادةِ قرص الشّمس آتون، لا يعرف الكثير عن نفرتيتي، ولكنْ هناك تشير نظريات إلى أنّها كانتْ من الأسرة الملكيّة، أو أميرة أجنبيّة، أو ابنة مسئولٍ حكومي رفيع يدعى آى، أصبح فرعوناً بعد توت عنخ آمون، المؤكّد أنّها كانت زوجة لأخناتون الذي حكم مصر من 1352 ق. م إلى 1336 ق. م... أنجبتْ نفرتيتي ستّ بناتٍ لأخناتون، إحداهنّ عنخ إسن آتون التي عُرفت فيما بعد باسم عنخ إسن أمون، زوجة توت عنخ آمون، واختفت نفرتيتي من التاريخ في السّنة الثانية عشرة من حكم أخناتون، ربّما لوفاتها أو لأنّها اتّخذت اسمًا

جديدًا غير معروف؛ كما ادّعى البعض أنّها حكمتْ لفترة وجيزةٍ بعد وفاة زوجها، ومن المحزن يا نفرتيتي الحبيبة أنّ تمثالَ نفرتيتي لا يوجد لديْنا في مصر؛ بل في متحف برلين في ألمانيا منذ عقود، ولم نستطعِ استرداده أبدًا.

- ولكنّنا الآن نمشي في مدينتهم، ولعلّهم كانوا يتجوّلون هنا معًا مثلنا.
- يا لقلبك الرّومانسي، ولكنّهما كانوا في مدينة تلّ العمارنة بمحافظة المنيا وليس هنا... لكن... نعمْ... لعلّها كانت تتهادى في هذه الأماكن مُمسكةً بيد أخناتون تطمئنه وتقول له، (محمود).

تضحكُ نادية قائلة:

- بل أخناتون.
- صحيح، ولكنْ دعيني لخيالي.
- سأغارُ منها.

ردّ محمود ضاحكًا:

- – إذًا، أمسكي بيدي يا نفرتيتي الحاضر، وطمئنيني؛ ألا زال قلبُك ينبض بحبّي؟

- رغم أنّ أيدينا مشغولةٌ بأولادنا يا زوجي العزيز إلا أنّني سوف أتخيّلنا نمشي معًا مُمسكةً بيدك لأقول لك (أحبّك أكثر ممّا مضى).

4

عادَ محمود إلى بيته سعيدًا مبشّرًا نادية:

- مبروك يا نادية، وصلت سمعةُ المشغل للقاهرة، ويريدون منْك تصميمَ عرض أزياء ملابس سهرةٍ سيحضرُه علْيَة القوم، وستكونين نجمة.
- كلّ هذا النّجاح بفضل الله، ثمّ فضلك عليّ يا أبا مها.
- مها والولدان نائمون؟
- نعم.
- إذًا... هيّا بينا نحتفل... اتّفقت مع أمّي على الجلوس معهم حتّى نعود.

تحتضنُ نادية زوجَها قائلة:

- مبروك يا محمود... هذا ثاني خبر مفرح لنا خلال أسبوع واحد... كمْ كنتُ سعيدةً باختيار مسرحيّتك، لعرْضها قريباً على خشبة المسرح، لكَ كلّ الخير يا أغلى ما لي.
- يا نفرتيتي، أنتِ وجهُ خيرٍ منذ أتيت لي بطلّتِك البهيّة، وآمنت بي ككاتب.
- يا الله! مَن كان يصدّق كلّ هذه الأحداث؟
- ربّك المدبّر.

- أشـمّ رائحـة حريـق، اذهـبي اطمئنّي على الأولاد، وأنا سـأرى المطبخ وأنزلَ لأمّي.

يسمع محمود ونادية صوتًا من الشّارع:

"الحقِ المشغلْ يا أستاذ محمود، حدّ يطلبِ المَطافي يا جدعان"

تصرخُ نادية:

- حرقوا المشغل؟
- الحمدُ لله لم تكوني به أنتِ أو الفتيات، ولا توجد أيّة ملابس أو أقمشة ذات قيمة.

*****

يسألهم وكيل النيابة في مكتبِه بعد الانتهاء من التحقيق:

- هل تتّهم أحدًا؟

يرد محمود:

- لا أعتقد أنّ هناك مَن يريد إيذاءنا.

لكن نادية قالت:

- أنا أريدُ أن أوجّه تهمةً لأحدهم سيدي.

تدخل محمود قائلاً:

- هل أستطيع التحدّث مع زوجتي على انفراد؟

رد وكيل النيابة:

- تفضّلا في الغرفة المجاورة، ولكن عليكما عدم التستّر على مجرم.

هز محمود رأسه وهو يقول:

- بالطبع سيادتك.

*****

انفرد محمود بنادية، محاولًا دفع الظنّ عن عدوّيه اللدودين... سعد وهاشم وهو يقول:

- خيرًا يا نادية... إلى مَن توجّهين التّهمة؟
- سعد يا محمود... سعد عاد.
- متى عاد؟
- لا أعلمُ متى، ولكنّ أمّي حدّثتني أنّه زار أخي، وكان يريد رؤيتي وأبنائه، وطلب أخي منْه نسياني؛ إذْ أنّني أصبحت زوجةَ رجلٍ غيره، أمّا الأبناء فسيقومُ بالتّواصل معه لمقابلتهم، فغضب غضبًا شديدًا، واتّهمني بأنّني تزوّجتك وأنا زوجته إذْ أنّه طلّقني مرغمًا، وبهذا يعدّ الطلاق باطلاً، وسيقوم بإيداعي السّجن، والتّشفّي منّي في أقرب وقت... كنتُ سأحكي لكَ بعد أنْ نحتفل معًا... وجاء أمرُ الحريق فعلمتُ أنّه بدأ في توجيه ضرباته.

- لو كان سعد مَن فعلَ ذلك؛ لا بدّ وأن توجّه التّهمة لهاشم أيضًا... لا بدّ من اللجوء للأستاذة هدى قبل أيّ شيء.

*****

تطمئنُهم السيّدة هدى أنّ سعدًا سافر عائدًا إلى عمله فجرَ ليلة الحريق مباشرة، وأنها موقنةٌ أنّه لن يجرؤ على العودةِ إلى مصر خلال السّنوات المقبلة، وسيتعامل معه زوجُ ابنتها لينالَ جزاءه، هو والمحرّض الرئيسي على هذه الفعلة.

كما أكّدت لنادية أنّ زواجها بمحمود لا تشوبه شائبة، فسعد قام بتطليقها بكاملِ إرادته طمعًا في وظيفةٍ وحياةٍ جديدة بعيدًا عنها، وطيبت خاطرها بقولها أنّ حياتنا لا بدّ فيها من العثرات حتى تستقيمَ ثانية، ونُثبت لأنفسنا ولمن حولنا أنّنا سنكون بخير.

*****

تجلسُ نادية وراءَ ستائرِ عرض الأزياء تراقبُ فتيات العرض يتخايلْنَ جيئةً وذهابًا بالملابس التي صممتها، وتشاهد محمود وأسرتيْهما جالسين، فتطمئنّ وتسمعُ-بحبور-تصفيقَ المشاهدين.

يجلس محمود على الجانب الآخر وراءَ ستائر خشبةِ المسرح، يناقشُ أبطال عملِه المسرحي الأول، ويرى بقلبه نادية تجلسُ في الصفّ الأوّل في انتظار انضمامِه لها إلى جوار وزير الثقافة وصفوةٍ الإعلاميّين والكتّاب حين ترتفعَ السّتار عن الفصل الأوّل من مسرحية (التاريخ يعود بنفرتيتي).

5

نادية

أفتقدُك كثيرًا، تُرى كيف حالك؟

منذ عدتُ من مصر، وأنا كثيرةُ الانشغال مع زوجي، وعدتُك منذُ سنوات أنْ أحكي لك ما كان زمنِ المراهقة، وسأفي بوعدي... لا لشيء إلا لأنّني أريد أنْ أحكي، لعلّي أتخلّص من الذّكرى، وأطلقها تطيرُ فلا تظلّ حبيسةَ جدران القلب.

سبحانَ ربّي... بكِ يا نادية شيء ما يجعل الجميعَ يحكون لك حكاياتهم، وينفضون أحزانَهم على كتفيك، وما يميّزك أنّ كلّ هذه الأحزان لا تمتصّينها بداخلك؛ بل تمتصّين ما بدواخلنا فنرتاح، أنتِ كإسفنجة البحر، فظلّي هكذا دومًا.

قبيلَ سفرك أهديتك قلادةً من فضّة، بها دلّاية مكتوبٌ عليها "معًا للأبد" كانت هديةً من ابن خالي، نعم ابن خالي صديق الطّفولة وحبيب المراهقة البريئة، لعلّه كان حبيبًا، ولعلّه الحبُّ الأوّل الذي قال عنه إحسان عبد القدوس:

"في حياة كلّ منّا وهمٌ كبير يسمّى الحبّ الأوّل، لا تصدّقْ هذا الوهم... إنّ حبّك الأوّل هو حبُّك الأخير.".

أحببتُ عماد منذُ تفتّحت عيناي على الدّنيا، كان أخي الكبير وصديقي لسنواتٍ عديدة، وما أنْ تخطّينا الطّفولة حتّى بدأت القلوبُ تنبض بحبّ جميل، ولكنّ أمّي الحكيمة علمتْ أنّ هذا الحبّ كُتب عليه الوأد منذُ البداية؛ لأنّني مخطوبة لابن العمّ منذ الطفولة، وفي ديارنا يعدّ هذا قانونًا لا يلغَى، وعهدًا لا ينقض.

أعادتني أمّي إلى الدّيار، وحادثتْ والدي أنْ لا أعود إلى مصر ثانية، وأنّها ستلتقيني في لندن أو باريس، وصارحته بما حدث؛ فما كان منه إلا أنْ عجّل بزواجي، فتزوّجت وأنا في السّادسة عشر من عمري، وهذا طبيعيّ هنا، وإنْ كنت حلمت وتمنّيت أن يكون لي غيرُ هذا الحظ.

باعدتْ الأيام بيني وبين عماد، ثمّ التقيتُه ثانية في بيت جدّتنا وأنا زوجةٌ وأمّ، وهو خرّيج جامعي يؤدّي فترةَ تجنيده، رأيتُه لساعةٍ وسط الجميع، وتحدّثتْ أعينُنا عن الأسف وقلّة الحيلة وتقبّل الأمر، فما حدث قد حدث، ولا حلّ لنا، ولن نستطيع إحياءَ الحبّ سوى في القلوب.

ثمّ التقيته مرّةً أخرى وهو طبيبٌ لجراحةِ القلب يعمل بجدٍّ وتفانٍ في عمله، حتّى أنّه لا يترك المريض بعد إجراء العملية إلا وهو معاف، وبحالة جيدة... تلاقتْ أعيننا وقلتُ له بعيني: "سامحني يا صديقَ عمري."... فقالتْ لي عيناه: "لا تطلبي السّماح؛ هو ليس بذنبك.".

تعمّدت جدّتي يومها أن تسأله: "ألنْ تتزوّج بعدُ يا حبيبي؟: كأنما قصدت أنْ تقول لنا: "انْسوا وعيشوا حياتكم".

فرَدّ عليها عماد قائلاً في حزن:

- لقد تفرّغت للطبّ يا جدّتي، ولا وقتَ لديّ سوى ساعةٍ أراك فيها يا حبيبتي، حتّى أنّي أحيانًا كثيرة أنام بالمستشفى، ويشكو أبي وتشكو أمّي.

فقالت له جدّتي:

- ورثتَ حنانَ قلب أبيك، ولكنْ هوّن عليك؛ صرت عجوزاً.

فضحكَ عماد قائلاً:

- قلوبُ مرضاي ستوقف قلبي يا جدّتي.

يومَها، كاد قلبي يتوقّف، وشعرتُ أنّه يودّعني بعينيه، وبعد أشهرٍ من آخر لقاء سمعتُ خبرَ موته من أمّي الحبيبة... ماتَ بجوار مريضٍ أجرى له عمليةً كبيرة في القلب، فعاش المريضُ واستيقظ ليجدَ طبيبَه إلى جواره مفارقًا الحياة! توقّف قلبُ عماد... طبيبِ القلوب... توقّف قلبُه، وأخذ معه جزءًا من قلبي.

ظللتُ لفترةٍ طويلة حزينة، وضميري يسائلني: هل أنا خائنةٌ لزوجي؟ هل كانت مشاعري طوالَ تلك الأعوام خيانةً له؟ تبتّلت إلى الله كثيرًا، وسألتُه المغفرة وأنْ ينير لي بصيرتي، ثمّ أيقنتُ أنّ مشاعري لعماد ربّما كانت حبًّا لكنّه

حبّ بريء انتهى بزواجي، وعشت طوالَ فترة زواجي الماضية حزينة، لكنّي لستُ خائنة... حينها فقط عاهدتُ نفسي أنْ أحاول تغييرَ زوجي، وأنْ أشعِرَه بأنّ قلبي يحتاجه وليس جسدي فقط؛ علّه يقبل عليّ بالقلب قبلَ الجسد... أشعرُ به يستجيب لي ببطء، ولكنْ دومًا كما يقولون أوّلُ الغيث قطرة.

هل تعلمينَ لمَ أردتُ أنْ أحكي لك يا نادية كلَّ هذا، وأثقل عليك؟

أردتُ أن أحكي كي أغلقَ هذه الصّفحة تمامًا، ولا أتذكّر منها سوى براءةِ أيّامي، وابن خالٍ توفّي شابًّا في مقتبل عمره، رحمه الله وربطَ على قلبِ أبويه، أمّا جدّتي... رحمها الله... فكما تعلمين فقد لحقتْ به بعد أسابيع قليلة، لم يتحمّل قلبُها الحزنَ على حفيدها الأكبر، فماتت.

كوني بخير كما أنتِ دومًا يا نادية، واطْوي هذه الصّفحة معي، ولا تنسيني من دعائك.

العنود

*****

قرأتْ نادية الرّسالةَ مرّة ومرّتين، ثمّ مزّقتها فما بها من أسرارٍ لا بدّ وأنْ يختفي، ولا يظلّ بين رسائلها العديدة، وتمنّت للعنود الخير.

6

استيقظتْ نادية لتجدَ رسالةً على وسادة محمود، مكتوبٌ على غلافها:

إلى نفرتيتي القلب، فتحتِ الرّسالة لتقرأ:

مرّت أعوامٌ على هذه اللّحظات وهذه الكلمات، ولكنّي أتذكّرها كما لو كانت الآن... عيد زواج سعيد يا نفرتيتي، اقرئيها ثانيةً بقلبك كما تقرئين لي دومًا، وانتظري عودتي بفارغِ صبرٍ كما أنتظر أنا.

يقولُ ابن زيدون كلماتٍ لا أشعرُ بها إلا بكِ ومعكِ:

إنْ غبتِ لم ألقَ إنسانًا يؤانسني ∴ وإنْ حضرتِ فكلّ النّاس قد حضروا

فهل تقبلين بي زوجًا؟

وأنْ يكون هذا إحساسي بكِ دومًا؟

محمود

*****

حين قرأت نادية هذه الكلماتِ للمرّة الأولى أعجبتها رقّتها، واليوم- أيضًا-أحبّتها، وضحكت وبكَت، محلّقة في أعالي السّماوات، فهي دومًا تشعر تجاهَه بنفس الأحاسيس، يومَها ردّت على رسالته وقالت: "قبِلْت".

وحينما التقيا أهْداها علبةً بها دبلتان، نقشَ على الأولى "إنْ غبت لم ألقَ إنسانًا يؤانسني" والثّانية "وإنْ حضرتِ فكلّ النّاس قد حضروا".

احتضنتْ نادية الرّسالةَ، ومرّت بأصابعها على حروفِ كلمات خاتمها، وشعرتْ بقلبها يطير فرحًا، كما لو كان محمود يطلب ودَّها الآن ثانية... نظرتْ إلى صورةٍ بجوارها لتشاهدَه مطِلاً عليها مُحتضنًا مها ابنتهما، وعلى جانبيه يقفُ الولدان والكلّ يبتسم في فرح.

7

مدام آمال

اشتقتُ إليك كثيرًا، أفتقد زيارتَك لي كلّ عام في أجازتك... أنا وكلّ أسرتي بخير، تخرّج أحمد في كلية التجارة بتفوّق، وكان من الممكن أن يكون معيدًا بالجامعة، ولكنّه آثر الاستمرارَ في العمل مَعنا في المشغل وشركة الأزياء، رافعًا عن كاهلِ والده أمرَ الحسابات والضّرائب وأشياء كثيرة تخصّ العمل، كي يتمكّن محمود من التفرّغ لكتاباته الجميلة؛ أمّا علي، فسيتخرّج من كلية الفنون الجميلة، قسم التّصوير في العام المقبل إن شاء الله... أمّا قرّةُ عيني مها الصّغيرة، فمازال الطريقُ أمامها طويلاً... سلّم الله أبنائي من كلّ شَرّ.

سألتني عن إخوتي في رسالتك... أخي نبيل كما هو مُسالمٌ وطيّب، ويعمل معنا في المشغل... لا تزالُ نَهلة متورّطة حتّى أذنيها مع زوجها في ترْويج المخدّرات والمال الحرام، نصحتُها كثيرًا؛ لكن للأسف لم يعدْ يربطني بها سوى صلةِ الرّحم، والأمل أن تعود إلى رشدِها؛ أمّا نسمة فمنذ اتّهام زوج نَهلة لزوجها بأنّه يساعده في ترويج المخدرات؛ فقد رحلوا مع الأبناء إلى إنجلترا خوفًا من التعرّض للسجن، وللأسفِ أبلغتني الأستاذة هدى أنّ عليهم قضية وحُكمًا بسنوات سجن، ومن الأفضل عدم عودتهم حتّى يسقط الحكم.

سأقولُ لك سرًّا، سافرتُ مع مها إلى إنجلترا، وقابلتها، وسعدتُ بالتئام الشّمل، ووعدتُها بالسّفر ثانية في العام القادم مع محمود والأبناء جميعًا... اتمنّى

أنْ أعلم موعدَ أجازتك حتّى لا أسافر وأنتِ هنا؛ فأنا أريدُك أن تقيمي معنا لعدّة أيام.

نادية

8

يرنّ جرسُ هاتف محمود في العمل ليستمعَ إلى صوتٍ مُنْهك يسأله:

- الأستاذ محمود فهمي؟

- نعم، مَن معي؟

- لا أدري إنْ كنت ستتذكّرني؟ أنا مصطفى علي، زميلُك منذ سنوات الرّوضة وحتّى الجامعة حتى فرّقتنا الأيّام بعد سفرك، ثمّ سافرت أنا أيضًا للعمل، وعدتُ منذ شهور.

- يا الله! بالطّبع أتذكّرك يا رجل، كيف حالك؟

- الحمدُ لله، ولكنّني أحتاج أنْ تزورني إنِ استطعت لأمرٍ عاجل.

- بالطّبع، خيرًا إن شاء الله.

- أتمنّى أن يكون خيرًا، أنا في المستشفى منذ عدّة أيام، وأتمنّى أن تأتيني في أسرع وقت؛ فأنا مُتعَب للغاية.

- سلّمك الله من كلّ سوء... حاضر... سأكونُ عندك بعد ساعتين إن شاء الله.

*****

ذهبُ محمود للقاء مصطفى في المستشفى ليطمئنّ على حاله...

- ألف سلامة عليك يا مصطفى، سلامات، هل يُعقل أنْ لا نلتقي طوالَ هذه السنوات؟

- أنا لم أكنْ أزور مصر كثيرًا؛ فمنذُ وفاة أبي، وإخوتي نصفُ الأشقّاء يتناحرون على الميراث، وحرموني إيّاه بحجج أنْ لا مال بقي بعد علاج والدي، وأنّني أعمل في الخارج، ولديّ من المال ما يكفيني ويفيض.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- لا بأس... المهمّ الآن أنا أحتاجُك في أمرٍ ضروري.

- تفضّل.

- عملتُ في الخليج لسنواتٍ كمعلّم للغة العربية، وأنجبت أربع بنات.

- ما شاء الله لا قوة إلا بالله، حفظهنّ الله.

- ماتتْ أمّهن وهي تلدُ الطّفلة الصغيرة، ومنذ عدّة أشهر علمتُ أنّني مصاب بالسرطان، وأنْ لا مجالَ للعلاج أو الشفاء.

- لله الأمر.

- وبالطّبع... ولأنّني لم أنجب سوى البنات، فسيضعُ إخوتي أياديهم على حقوقهنّ، وقد يستولون عليها، ويرمونهنّ، أو يعاملونهنّ كخادماتٍ في بيوتهم.

- لهذه الدّرجة؟

- وأبشعُ ممّا تتخيّل، لذلك قرّرت أمرًا أريد عونك فيه.

- تفضّل، وسأبذل قصارى جهدي في مساعدتك.

- لقد فكّرت كثيرًا في هذا الأمر، واستخرتُ الله سائلاً أنْ يلهمني البصيرة لأجد مَن يعينني في أمري، وأهداني الله الحلَّ وأنا أمشي هائمًا أفكّر؛ إذْ وجدتُ ديوانك الأخير عند بائع الجرائد والكتب، فتذكّرت، وسألت عنْك حتى تمكّنت من الوصول إليك... البنات يعشنَ في بيتي مع خالتهنّ، كانت مطلّقة لا تُنجب، تعيش في بيت أخيها منذ طلاقها، تزوّجتُها بعد وفاة زوجتي، وهي تحبهنّ للغاية وتقوم بالاهتمام بهن، ولكنّي أخافُ عليهنّ كثيرًا؛ لذلك قمتُ ببيع بيتي، وسأضع كلّ المال الذي لديّ تحت تصرّفك.

- ماذا!

- انتظرْ قليلاً... هل تتذكّر حين كنّا صغارًا؟ كنتُ يتيمَ الأمّ، وكانت زوجةُ أبي وإخوتي منها يعاملونني بقسوةٍ في غياب أبي الدّائم... حتّى الطّعام والمصروف كانوا يمنعونه عنّي، وكنت أنتَ مَن يتقاسم معي وجبةَ طعامه ومصروفِه دومًا، ولم أنسَ لك فعلَكَ هذا، والله جاءَ بكتابك أمامي يذكّرني بصنائع معروفك.

- يا مصطفى... كنتَ لي بمثابة أخ وصديقِ عُمر.

- ومِن أجل هذا أنا أعلمُ أنّ بناتي سيكنّ في كنفك في أمان، سأشتري منزلاً جوار بيتك يعشنَ فيه، وأتمنّى أن تزورهنّ أنتَ وزوجتك لتطمئنّ عليهن، وتشرف على تربيتهنّ بمعاونة خالتهن.

- يشرّفني هذا يا صديقي، وأتمنّى أن أكون عند حُسن ظنّك.

- أعلمُ أنهنّ سيكنّ بخيرٍ معك، أوصيك بهنّ خيرًا، حتّى يصلنَ إلى بيوت أزواجهنّ، الواحدة تلو الأخرى.

- أعدُك هذا إنْ كتبَ الله لي العمر.

9

أرختِ السماءُ سترها على جلسة هادئة بين محمود ونادية في الشرفة، وقد بات ترتيب الله يرعاهما معًا بعد أن وجدَ محمود شقة مناسبة أخرى في نفس العمارة التي يقطن فيها، نظرت له نظرة جمعت الحب والاهتمام والاحترام لتصرّفاته، وقالت:

- أصبحَ الآن لدينا خمسُ بناتٍ بدلاً من ابنةٍ واحدة يا محمود.

- رحمكَ الله يا مصطفى... مسئوليّة كبيرة يا حبيبة.

- سيمكّننا اللهُ من الاهتمام بهنّ، وسيقوّينا على ذلك... الحمدُ لله أنّنا وجدنا سكناً لهن في نفس العمارة، وهكذا سأتمكّن من متابعة أحوالهنّ دومًا، وخالتهنّ معهن وهي للأمانةِ إنسانةٌ طيّبة الأصل، تحبّهنّ وتتفانى في خدمتهنّ وتربيتهِنّ تربيةً صالحة، وهُنّ على خلق، ولسنَ بمُتعِبات، ولن يحتاجَ الأمر منّا سوى الودّ والإشرافِ عليهن.

- لكنْ هناك أمرٌ ما لا بدّ من التحدّث إليك فيه... تعرفينَ بالطّبع أنّ خالتهنّ امرأةٌ أرملة الآن، ولا يصحّ أنْ أزورها في منزلِها للاطمئنان على البنات؛ لذا مِن الأحْسن أنْ تقومي أنتِ بهذا الدّور عنّي، وبإمكاني أنْ أرى البنات هنا دومًا.

- جميل... كنتُ لا أعرف كيف أشرحُ لك هذا الأمر، ولكنْ أنتَ دومًا... "بتفهمها وهيّ طايرة".

- أشتمّ رائحةَ غيرة.
- وهل ستدعُني أغار؟
- كلا البتة يا امرأة... أنا لا أرى أمامي سواك.
- ولا في أيّ اتّجاه آخر... كنْ واثقًا من هذا.

10

تجلس داليا إلى نادية وهي قلقة تتصارع في ملامحها أفكار ومخاوف، شعرت بها نادية فسألتها

- ما الأمرُ يا داليا؟ لمَ تبدينَ قلقةً هذه الأيام؟

- أفكّر في أمرٍ هامّ يقلقني.

- خير يا ربّ.

- حين تزوّجتُ مصطفى رحمه الله، تزوّجتُه وفاءً وإكرامًا لأختي وبناتها، خفتُ أنْ يتزوّج مصطفى بأخرى تكونُ لهنّ زوجةَ أب، ويشهدُ الله أنّي أحبّهنّ وأعاملهنّ مثلما كانت أمهنّ.

- وأنا أشهدُ لك أمامَ الله بذلك يا عزيزتي... إذًا لمَ القلق؟ هل هناكَ شخصٌ ما في الأجواء خفقَ له قلبُه؟

تضحكُ داليا، وتردّ:

- لا... لا... انتهى أمري مع الزّواج؛ فأنا سأكرّس ما تبقّى من حياتي للبنات.

- إذًا، ما الأمرُ يا امرأة؟

- في سورة النّساء حرّم الله تعالى الجمعَ بين الأختين... ﴿**وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[1]

[1] سورة النساء: آية 23

- صحيح... ثمّ ماذا؟

- بعدَ زواجي بمصطفى أحببتُه كثيرًا... كان طيّبَ العشرة ذا خلقٍ طيّب، يُحسن معاملتي بالرّغم من أنّني أكبرُ منه عمرًا، واليومَ أفكّر في حزن، ترى كيف سيكونُ حالي معه، وأمامَ أختي في الجنّة؟ هل ستغضبُ منّي؟ هل غارتْ منّي حينما تزوّجته؟

تبتسمُ نادية، وتحتضنُ صديقتَها الجديدة، وتقول:

- الأمرُ مختلفٌ تمامًا عن الدّنيا يا حبيبتي، ستكونينَ مع أختك زوجتيْن لمصطفى إنْ شاء الله بإذن الله في الجنّة، فمصطفى تزوّج كلتيكما على حدة، ولم يجمعْ بينكما، وكذلك مشاعرُ الغيرة والغضب وما سواهما ستنتهي، يقول تعالى في سورة الحجر﴿**ونَزَعنا ما في صدورهم من غِلّ إخوانًا على سُرُر متقابلين**﴾[1]

- هل هذا صحيحٌ يا نادية؟ أنا والحمدُ لله أقرأ القرآن؛ لكنّي من شدّة خوفي لم أعدْ أدري أين مكاني بين زوجي وشقيقتي في الجنّة.

- اعملي للجنّة أنتِ فقط، وسترينَ أنّ ما ذكرته لك هو عدلُ الله في جنّاته.

[1] سورة الحجر: آية 47

11

شعرَ محمود بإرهاقِ نادية في العمل، فقرّر الذّهاب معها وحدهما إلى مرسى مطروح دونَ الأولاد وإخوته، ففي العام الماضي حينما ذهبَ الجميع كانت تعملُ على راحتهم وإطعامهم، ولم تستمتع بالإجازة، وكان كلّما نصحها أنْ ترتاح من هذه العصابة فهي في مصيف، تضحك قائلة: "المصيف يحبّ اللمّة".

يبتسمُ محمود حالماً بإجازة مع نادية وحدهما، وواثقًا أنّها ستنعته بالاستبدادِ لقراره هذا.

*****

يغنّي محمود لنادية:

- يا ساكني مطروح، نفرتيتي في بحْركم.

فتضحكُ وتقول له:

- ستغضبُ ليلى مراد منْك هكذا.
- لو رأتْكِ وتحدّثت إليكِ لكانت غنّتها كما أغنّيها تمامًا.
- مراوغ.
- أنا مراوغ؟ سأذهب حالاً لألقي بنفسي من فوق صخرةِ الغرام حزنًا، وستظلّ روحي هائمةً في المكان تنادي... نفرتيتي.
- توقّف أرجوك، لا تقلْ هذا، العمرُ الطويل لك.

- إذًا، اعتذري حالًا، وأظهري دلائلَ النّدم.

فتغنّي له نادية: "روحي وروحك حبايب مِن قبْل دا العالم والله".

12

- يقولونَ إنّ الشرّ دومًا يحاول أنْ يغلب الخير، وإنْ فازَ مرّات قليلة.

- ما هذا يا نهلة، ماذا يعني رفضُ أختك زواجَ ابننا بمها ابنتها؟

- هذا يعني ما سمعتَ يا سليمان، رفضته ورفضتْنا يا زوجي العزيز.

- ومَن تحسبُ نفسها؟

- هي وزوجها (توبهم مش من توبنا) يا سليمان... أين نحنُ منهم؟ قلت لك قبلاً لن تتمّ هذه الزّيجة، ولكنّي انْصعتُ لكلامك، وسألتُها.

- ستندمُ هذه الحشرةُ على رفضها لابني.

- بل أنت مَن ستندم إنْ مسستَ شعرةً من رأسها، سأذهب وأبلّغ عن عمليّة تهريبك القادمة، وستذهب إلى السّجن ثانية.

- تهدّدينني يا نهلة؟

- نعم، نحن معًا في نفس القارب، فإمّا البقاء وإمّا الغرق، أنا زوجةٌ وأمّ لمهرّبين للمخدرات ومُدمنين، ولنْ أخسر أكثرَ ممّا خسرت، أنا اخترتُك منذ البداية، ورضيتُ بك، وغرّني مالك، وماذا كانت النتيجة؟ ابنٌ في السّجن، وآخرُ مهرّب ومُدمنٌ للمخدرات.

- إنْ ذهبتُ إلى السجن ستكونين إلى جواري في سجنِ الحريم.

- فليكنْ هذا، ولكن لن تؤذي أختي وأسرتها، وكما قلت لك يكفيني أنّها مازالت تودّني بالرّغم ممّا نحن فيه من وبالٍ ومصائب.

يخرجُ سليمان صافقًا بابَ المنزل بقوّة، وهو يردّد:

- الوليّة اتجننت!

*****

وضعتْ نهلة رأسَها على يدها، وجلست تبكي وتترحّم على أمّها التي ماتت وهي غاضبةٌ عليها، ومنها؛ منذُ صمّمت على الزواج بسليمان.

ورجعتْ بذاكرتها للوراء، وكيف كانت شابّةً جميلة تعملُ في البيوت حتّى تعرّف عليها سليمان الذي كان يعمل عاملَ مُحاسبةٍ في مقهى مجاورٍ لبيتهم، وكمْ جلس يزيّن لها المستقبل، وأنّه سيكون غنيًّا إذْ أنّه يعمل عملاً آخر سيدرّ عليهم المالَ الكثير، وكيف ستكونُ ملكة لن تضطرّ للعمل في المنازل.

تقدّم للزّواج منها بالفعل، ورفضَهُ أخوها نبيل كما أمّها؛ إذْ أنّه كان غامضًا، ولا يعرفون مِن أين له كلّ هذا المال مع عمله البسيط... لكنّها صمّمت؛ بل وتركتِ الشّقة التي ورثتها من أبيها مغلقة، وعاشت مع زوجها في منطقةٍ ثانية، علمتْ بعدها أنّها وباءٌ ووكرٌ لتجّار المخدرات، ومرّت أعوام قليلة وهي تعيشُ في بذخ، تشتري الذّهب وتضعُه في البنك، وتشتري المنازل القديمة تجدّدها ثمّ تبيعها؛ حتّى دخل زوجُها السّجن، وعادت إلى شقّتها في بيت أبيها تحمل طفليْن صغيريْن، وتكرّرت مأساة سجن زوْجها مرّات، وكانت ذكيةً؛ تكتبُ كلّ أملاكها لأخيها نبيل الطيّب، الذي لم يكنْ ليرفض لأخته طلبًا، ولم يكنْ ليضع يدَه على قرشٍ من مالٍ يعلم أنّه ليس له، كما أنّه مالٌ

حرام، وكان لنهلة توكيلٌ منه بالتصرّف في كلّ أملاكه كي تستطيع العمل بحرية بعيدًا عن زوجها وعمله وماله.

قلّ بريقُ الذّهب والمال في عينيها مع مرور الأيّام؛ لكنْ بعد فوات الأوان؛ إذْ شبّ الأولاد على نهج أبيهم في تجارة المخدّرات، والحبس بسبب المخدرات والمعارك التي تنشب دومًا في المنطقة، وكلّما حدثت معركةٌ أخذوهم جميعًا إلى قسْم البوليس، وهشّموا بيتهم أثناءَ التّفتيش عن المخدرات والأسلحة، وأدمنَ صغيرها المخدّرات، فكان يدخل السّجنَ تارة، والمستشفى للعلاج تارةً أخرى!

تنظر نهلة اليوم نادمة إلى ما بيدِها من مالٍ وما آل إليه واقعها وتردّد:

- رحمكِ الله يا أمّي... كنت ذات بصيرة.

13

أطل يوم دافئ جديد على بيت نادية، بيت يجمع أهله بالشعور الدائم بالاطمئنان والألفة، دخلت مها غرفة المعيشة وهي تصيح:

- صباحُ الخير يا وزيرةَ المرأة، صباحُ الخير يا وزيرَ الثقافة.
- ضحكَ محمود قائلًا لابنته:
- صباح الخير يا وزيرةَ الشباب، إنْ سمعك الجيرانُ سيقولون أنّنا بيتُ مجانين.
- أنا حرة... أطلق الألقابَ على أمّي وأبي ليكونوا وزراءَ في منزلنا الحبيب.
- اذهبي أيقظي أبناءَ شعبِك الكسول؛ فلدينا مجلسِ حرب.
- تنهّدت نادية وتمتمت بهدوء:
- حرب! وهل ستحاربُ العريس قبل دخولِه منزلنا خاطبًا؟
- ابتسمَ محمود قائلاً:
- وزيرةُ المرأة ما يتبلّش في بقّها فولة.

تتصنّع مها الفضولَ والخجل:

- بوي... عريس يا بوي... طخّه بسّ متموّهوش يا بوي.

يمسكُ محمود بالجريدة، وكأنّه سيضرب بها مها التي تجري مِن أمامه:

- اقرأ الحادثة... وزيرُ الثقافة يضرب وزيرةَ الشّباب بجريدة... يا للْهَول.

14

- مَن يصدّق يا نادية بعدَ مرور كلّ هذه السّنين يخطب ابني على ابنتَك مها.

- اسمه الدكتور علي يا هبة.

تضحكُ هبة قائلةً في فرح:

- في نظرك دكتور، في نظري على أبو سنّتين ولسان ألْدغ في كلّ الحروف... يا الله! كم أنا سعيدة وممتنّة لك، وأدين لك بالكثير.

- ما هذا الكلام الآن؟

- لوْلاك ما كنتُ عملتُ لدى الأستاذة هدى، ولا أدري... هل كنتُ عدْتُ للمحامي الأفّاق... أم ماذا؟

- أنا لم أكنْ سوى سببٍ وضعه اللهُ في طريقك يا هبة، ثقي في هذا.

- صحيح، الحمدُ لله على هذه النّعمة يا أجملَ سبب.

15

تتّصل نادية بمدام أحلام كي تسأل عنها:

- مدام أحلام، كيف حالك؟
- بخيرٍ حالٍ يا نادية. كيف حالكِ وحالُ عروستنا؟
- هي بخير، ولكنّني رأيت حماده وابنكَ تامر في المنام اللّيلة الماضية.
- اللّهم اجعله خيرًا، هل كانا بخير؟
- نعمْ يجلسان في مكانٍ جميل كأنّه حديقة منزل كبير.
- نعْمَ المقامُ إنْ شاء الله.
- وأنا ذهبتُ إليهم وجلستُ معهما، وداعبت حماده، وضممتُه إلى حضني طويلاً وسألني تامر عنْك.

تصمتُ أحلام لدقيقة، ثمّ تهمس:

- إذًا، علينا أنْ نزورهما فهما يفتقداننا.

تغلقُ أحلام الهاتفَ مع نادية، وتحدّث نفسها:

- إلى أين تذهبينَ يا نادية وعرْسُ ابنتِك قد اقترب؟

*****

الفصلُ الثّالث

1

تبكي مها وهي تنظرُ إلى فستان الزّفاف الذي صمّمته هي وأمّها لترتديه يومَ زفافها وتقول لأبيها:

- كيف ماتتْ هكذا، وتركتْنا فجأة دون أيّ علامةٍ لمرض، ودونَ أنْ تشكو شيئًا ما؟ كيف سأستطيعُ ارتداءَ هذا الثّوب دونَ أن أبكيها؟ كيف سأستطيعُ ممارسة عملي في تصميم الأزياء دونَ أن أفتقدها؟

- تماسكي يا ابنتي، فأخوتك الشّباب يحتاجون لنا سندًا ودعمًا؛ فقد ماتتْ عنهما مَن كانت سببًا في تماسكِ هذا البيت، وسيشعرون بالضّعف وكأنّهم ضيوف بمنزلنا هذا، وعلينا أنْ نصرف عن ذهنهم تمامًا هذه الأفكار.

- لم أشعرْ يومًا بهذا يا أبي، ولا أظنّهم كذلك.

- كان هذا قبلَ وفاة غاليتي، ولكنِ اليوم رأيتُ في عيونهم هذا الإحساسَ، وعلينا محْوَه.

2

- تمالك نفسَك يا نبيل، فمنذ رحلتْ نادية عنّا وأنتَ مريضٌ ومنهار، لديك أسرةٌ تحتاجك.

- رحلتْ أنقى ما فينا يا محمود، وتركتنا فجأة.

- تركتنا جميعًا، ولكنْ هي إرادةُ الله، وأنت إنسانٌ متديّن، وتعلم جيدًا أنّه لا حيلة لنا في هذا سوى الرّضوخ والاستمرار حتّى نلقاهم.

- كانتْ أحنّ مَن لديّ مِن الأخوات، فنهلة تطبّعت بطباع زوجها، وجعلها المالُ والأحداث التي مرّت بها شرسَةَ الطّباع، ونسمةُ تتحدّث إلينا كلّ شهورٍ في المناسبات، منذُ رحلت وأسرتها إلى إنجلترا.

- هي تركتْكَ ولكنّي موجود، وتراني يوميًّا في المشغل، وبإمكانك المرور لزيارتي في أيّ وقت تحبّ لتؤانسني، وترى أبناء أختك، فقدتَ أختًا ولديك أخٌ يا نبيل.

- ونعْمَ الأخوة.

3

كانت نادية فيما مضى تجتمعُ مع صديقات الرّسائل مرّة كلّ شهر، وقد تمكّنت بطيبة قلبها وذكائها أنْ تجمعَ بينهنّ ليصبحن مجموعةً من أجمل الصّديقات، ضمّت إليهنّ داليا.

اجتمعنَ بدونها واليوم، وخيّم الصّمتُ على الاجتماع، يقطعُه تنهيد أو بكاء، أو ترحّم على نادية... تقطعُ أحلام الصّمتَ قائلة:

- لقد حلمتْ نادية أنّها ذهبت لتزور حماده وتامر ابني وهاتفتني أخبرتني إيّاه، وتحقّق لها الحلم... ليتني يومَ روتْ لي الحلم زرتُها.

تردّ عليها هبة في حزن:

- هوّني عليك مدام أحلام فجميعنا كنّا معها قبيل موتِها بأقلّ من ثمان وأربعين ساعة في آخر اجتماع لنا.

تردّ أحلام وهي تجهشُ بالبكاء:

- نعمْ... هذا صحيح، ولكنّي كنتُ أتمنّى لو قلت لها قبّلي عنّي تامر، وقولي له اشتقتُ الذّهاب إليك.

تتدخّل عواطف باكية:

- لا إله إلا الله... وحّدي الله يا أحلام.

تنظرُ إليهنّ داليا باكيةً لتقول:

- نعْمَ الأخت، ونعْمَ الجارة.

تتدخّل سعاد مهدّئة:

- افرحي لها يا مدام أحلام، واطمئنّي؛ طالما ذهبتْ إليهما فهي ستضعُ تامر وحماده في عينيها.

تردّ أحلام مبتسمة وسطَ دمعها:

- دومًا لك وجهةُ نظرٍ مختلفة يا سعاد.

- إنّها طاقةٌ إيجابية ولله الحمدُ، تجعلني متزنةً في زمن مليء بالخلل، والآن يا سيّدات... ما أخبار الجمعية الخاصّة بكنّ؟ سآتي إليكنّ قريبًا لأشتري عدّةَ وجبات؛ فعملي يأخذ كلّ وقتي ولا أستطيعُ الوقوف في المطبخ إلا قليلاً، وأشعرُ بزوجي سيجلب لي زوجةً جديدة لإطعامه.

ردّت بسمة بخبث:

- إطعامه فقط؟

وأكملت أميرة:

- وتمْريضه.

ردّت عليهم سعاد بقوّة:

- وهل أنا عجوز؟ أنا ما زلتُ صبيّة، لوْلا ألم مفاصلي وركبتيّ.

تبتسمُ السّيدات، ويشعرنَ بروح نادية معهنّ مبتسمة... تدخّلت بسمة بجديّة:

- نريدُك معنا في الجمعية يا سعاد لتأهيل الأمّهات اللاتي لديهنّ أطفال ذوي احتياجات خاصة، وتصبيرهنّ، وجعلهنّ يرضيْنَ، ويتعاوَنّ مع أطفالهنّ... ما رأيك؟

- الله! أحبّ هذا جدًّا... لقد شاهدت العديدَ من الفيديوهات على الإنترنت وبإمكاني ترجمتها والتحدّث إليهن.

تتدخّل أميرة بحزن:

- رحمكِ الله يا نادية فالفكرةُ كانت فكرتَها.

*****

رفضَتِ بسمة الزّواج مرّة أخرى بعدَ طلاقها من زوجها، بينما تزوّجت أميرة ورُزقت بولدٍ وبنت، وظلّت الصّديقتان كالأختيْن (ع الحلوة والمرّة) كما يقولون، ثمّ قرّرن إنشاء جمعية خيريّة بعد انقضاء السّنوات، يبعنَ فيها العديدِ من الأشياء... طعام مطبوخ، أو مجمّد، أو مجهز للطهي، مفروشات يدويّة، ملابس، وغيره، ويعود الربح من كلّ ذلك لصالح الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة ذهنيًّا وبدنيًّا، وأسرهم المتعثرة ماديًّا في مصر... بدأ المشروع صغيرًا في شقّة مكوّنة من غرفةٍ وصالة، حتى صارَ اليومَ في مكانٍ رحْب يسوده الحبّ والعملُ الدؤوب.

4

تمسكُ آمال في يدِها برسائلَ نادية، وتقرأ آخرَ رسالةٍ أرسلتها لها، وتسأل نفسها: "هل كانت تودّعني، وتخفّف عنّي وطأة الغربة، وتصبّرني؟"

وتكتبُ لمحمود:

محمود،

يعزّ عليّ أن أكتب أولى رسائلي للتّعزية والمواساة، لقد أرسلتُ لنادية رسالةً منذ أيام، وشكوت لها وحْدتي هنا، فالخدمُ والموظّفون أصبحوا من الهنود والتّايلانديّين، وأصبحت أشعرُ بينهم بالغربة، لوْلا العنود وتصميمها أنْ أكون مسئولةً عن الأولاد، بعيدًا عن هؤلاء الخدم واللغات العجيبة التي يتحدّثون بها؛ لكنْتُ عدْتُ إلى مصر... لكنْ لمن أعود؟

سأكون وحيدةً في بيتي بلا زوج... بلا ابنٍ، أو أهل فأهلي كلٌّ منهم يعيش بعيدًا في حاله... لا أدري لم فعلَ بي أبواي هذا؟ لمَ أرسلوني خادمةً في بيت الأمير منذُ مراهقتي، وتناسوْا أنّني سأغدو شابّةً تحتاج للزّواج، وأنْ يكون لها أسرة؟ لا أدري كيف هانتْ عليهم ابنتُهم فرفضوا تزْويجي مرّةً تلوَ المرّة، حتّى اختفى العرسان، واطمأنّوا للدّجاجة التي تبيض لهم ذهبًا، حتّى أنّهم كانوا أحيانًا يرسلون لي:

"وفّري ثمن تذاكر قدومِك إلى مصر للعام القادم، فأخوكِ يحتاج، فأختُك تحتاج، إلخ!"

كتبتُ كلّ هذا لبئر شكواي نادية، فكانت رسالتها الأخيرة طمأنينةً لي، وعاهدت نفسي أنْ أظلّ إلى جوار العنود وأبنائها وأحفادها مستقبلاً، واطمأننتُ إلى الله، ولجأت لكتابِه، أقرأه كثيرًا، وأختمُه الختمةَ تلوَ الختمة، وأدعو الله لنادية بالجنّة واللّحاق بها.

تواصلْ معي كما كانت نادية تفعل؛ لعلّنا نتذكّرها بهذا، ونسأل الله لها الجنّة.

آمال

5

داليا:

- أستاذ محمود، لي عندك رجاء.
- خيرًا.
- تزوّجتْ بناتي، ولم يبقَ سوى الصّغيرة التي ستتزوّج خلال أشهرٍ قليلة والحمدُ لله، وأنا أريد بيعَ هذا المنزل وتقسيمَ مالِه على البنات الأربع.
- وأنتِ... أين ستذهبين؟
- تعيش خالتي وحيدةً في منزل جديّ، وهي تحتاج إلى الخدمة فهي وحيدة وشبهُ مُقعدة، يغيب عنها الأبناءُ كثيرًا لظروفِهم الخاصّة وأسَرِهم، ولا همّ لديّ سوى مساعدتها.
- وهل تشاورتِ في الأمر مع البنات؟
- نعم، وطلبوا منّي إبلاغك بأنّها رغبتُنا جميعًا.
- على بركةِ الله.
- لي عندك طلبٌ آخر... أتمنّى أن تزورنا في بيت خالتي، ولو مرّةً في الشهر كي تتقابل مع البناتِ وأزواجهنّ.
- لكِ منّي هذا بمشيئة الله.
-

6

تزور العنود وأمّها محمود، وتقول هدى:

- لا أدري يا بنيّ ماذا أقول... هل أواسيك ثانيةً، أو أبارِكُ لك زفاف مها القريب.

العنود مقاطعة:

- زفاف! كيف هذا؟

تردّ مها بسرعة:

- هو ليس زفافًا يا خالتي العنود؛ فزوجي في لندن، وسأرتدي ثوبَ الزّفاف الذي صمّمتْه لي أمّي وأسافر له به.

تحتضنُ العنود مها وتبْكيان، وترى هدى الدّموعَ في عيون محمود والشّابين، فتبدأ في حديث علَّه يكون سلوى لهم:

- محمود يا بنيّ، كتبتْ نادية وصيّة، وأوصتني أن تفتحها أنتَ في وجود العنود؛ فانتظرتُ حتّى أتتْ من السّعودية، فهل لكَ أن تقرأها أمامنا؟

ردّ محمود مستغربًا:

- وصية؟

ردّت هدى بثقة:

- نعم، كتبتْها من زمن، وغيرت بعض الأشياء فيها قبيلَ أسبوع من موتها.
- يا الله! كانت تشعر أنّها ستموت، رأتْ نفسها في الحلم تزور حماده، وتجلس معه.

تعودُ العنود ومها للبكاء، ويخيّم الصمتُ على الجميع، ويمسك محمود الرّسالة ليقرأ:

*****

محمود

عندما تقرأ رسالتي هذه سأكون بعيدةً في برزخٍ أتمنّاه جنّة محتضنةً ابني حماده... كمْ سأشتاق إليك وإلى قرّة عينيّ الثلاث، ولكنّ عزائي أنّ الدّنيا لا تخلدنا، وسنلتقي في وقتٍ يحدّده الله لكم، أدام الله أعمارَكم بالخير.

محمود

حين بدأ العملُ بيننا كان المالُ كلّه مالَك حتّى المشغل القديم، وظللنا لسنوات وحتّى يومنا هذا يذهبُ المال في حسابٍ مشترك بيني وبينك، ولمْ أحاولْ مرّة أن أرى قيمةَ ما لدينا؛ فلمْ أهتمّ وأنتَ والأولاد معي.

أوصيك اليوم أنْ تقومَ بتقسيم المشغل وشركتنا عليكم أنتُم الأربعة، وتعطي لنبيل وأولادِه جزءًا فأنت.....

يقاطع محمود القراءةَ قائلاً:

- بل عليهم الثلاثة ونبيل وأسرته، فأنا أكتفي بعائدِ الكتب ورواياتي.

تدخّلت هدى بهدوء:

- انتظرْ كي تكمل.

لكنّ محمود أردفَ بحزم:

- لا سيّدتي؛ فهو ما قرّرته منذ توفّيَت.

يكملُ محمود الرسالة:

أعلمُ ما ستفعلُه يا زوجَ نفرتيتي، ولم أقلْهُ لك؛ فأنت لا بدّ وقرّرته الآن لتوّك، وسأقول لكَ إحساسي بكلّ صدق حين نلتقي، لكنْ قبل أيّ تقسيم للمال والعمل، أريد جزءًا من هذا المال، وجزءاً من إيراد الشّركة مستقبلا، أنْ يذهب إلى مشروعٍ يكون بيني وبينك يا عنود، وسيساعدك فيه بسمة وأميرة اثنتان من صديقاتِ العمر لديهن جمعيةٌ خيريّة، أريدكِ أنْ تتعاوني معهن على استقبال العائلات الفقيرة لمكّة والمدينة كمُعْتمرين، وليس كحجّاج بالطبع، فكمْ من سيّدةٍ مسنّة تحنّ إلى الذّهاب إلى العمرة ويمنعُها ضيق ذات اليد، وكمْ من أمّ تحلم بالذّهاب إلى مكّة والدّعاء لولدها المعاق أو المريض بالشفاء.

أودّ أن يكون هذا المشروع، مسكَ ختامِ حياتي التي أشعرُ أنّها أوشكت على الانتهاء... لا تحزنوا يا أحبّائي، فسأكون معكم بروحي دومًا.

لا تنسوْا ودّ وزيارةَ داليا وبناتِها؛ فهُم كانوا دومًا أقربَ إلينا من الأهل.

ملحوظة:

مُرفق بوصيّتي رسالةٌ خاصّة لكَ يا محمود، اقرأها أنتَ والأولاد ليلةَ زفاف مها.

لا تنسوني من الدّعاء.

نادية

7

"أحبّائي... محمود... أحمد... علي... مها.

هذه أجملُ ليلةٍ قرّرت أنْ أجتمع معكم فيها، لا لأجدّد الأحزان؛ ولكن لأفرحَ بابنتي معكم، كان من المفترض أنْ تكون هذه ليلةَ حنّاء مها، فهل احتفلتم؟"

تنظر مها دامعةً واجمة إلى أبيها وأخويْها، وتبتسم قائلة:

- احتفل معكِ الآن يا أمّي.

"مها... افتحي أغنية "ما تزوّقيني يا ماما" في الغدِ وأنت ترتدين فستانَ زفافك يا أميرتي... الأغنية لمها صبري[1] يا ابنتي، بالطّبع لنْ تعرفينها، والأغنيةُ لها حكاية عجيبة مُضحكة، أراكَ تضحك يا محمود."

يبتسمُ محمود ابتسامةً من قلبه...

"ذهبَ الملحّن الكبير بليغ حمدي إلى أحدِ الكباريهات ليقضي السّهرة، وعند وصوله ناداه صديقُه عبد الرّحمن الخميسي، وكان بصحبة إحدى مغنّيات الكباريه، اسمها مها صبري، وطلبَ منه أن يسمعه الأغنيةَ التي لحّنها، لم يفهمْ بليغ حمدي شيئًا، لكنّه تفادى إحراجَ الشّاعر، وأخذ منه الكلمات، وطلب بعضَ الوقت ليتذكّر.

---

[1] الأغنيةُ للرّاحل بليغ حمدي، ولهذه الأغنية الفضلُ في شهرة مغنّيتها، وهي أغنية ولدتْ في إطار دُعابة وشقاوة بريئة قام بها كاتبها وملحّنها.

ذهب بعد ذلك إلى ركنٍ في القاعة، ووضع لحنًا للنصّ، ثمّ عاد بالأغنية التي لم يتوقّع لها أحدٌ النجاح الذي حقّقته، والشّهرة التي حصلتْ عليها مها صبري على اعتبارِ أنّها مرّت من نكرةٍ في كباريه إلى مغنّية مشهورة لحَنَ لها الكبارُ أمثال بليغ حمدي ومُحَمَّد الموجي وسيد مكاوي، واختار لها اسمَها الفنيّ الفنان ، من أشهر أغانيها "ما تزوّقيني يا ماما" التي غنتها في فيلم منتهى الفرح.

أبنائي أحمد وعلي.

أحببتُكما دومًا، ولكنّكما كنتما في بداية عمريْكما تغاران من حماده، علّ قربي منه كان لمرضِه وعدم اهتمامِ أبيكما به؛ فسامحاني، يقولون إنّ حماده لي كان كيوسف ليعقوب، ولكنْ هي سنواتٌ قليلة مات بعدَها، فكنتُما لي– ومها–قرَّةَ عيني.

أوصيكما بأبيكما محمود، إيّاكما وأنْ تتركاه لغربةِ النّفس، املئا بيتَه أنتما ومها بالأحفاد، أوصيكما بأبيكما سعد خيرًا، ابحثا عنْه وزوراه، وإنْ كان يحتاجُ إلى المال لا تبْخلا عليه به لكنْ بغير إسراف، وأوصيكُما الخيرَ بأختكما مها، كونَا لها طيّبين كما أنتما دومًا، وأوصيكما بأهلِكما كلَّ الخير والحبّ.

وعند الختامِ يكونُ المسْك.

محمود

لا أحتاجُ لتوصيتك سوى بأمرٍ واحد؛ فأنا أعلمُ أنّ مثلك لا يحتاجُ أن أوصيه بأبنائه، كنْ بخير حتّى نلتقي يا حبيب العمر.

حبيبتُك التي أتت، ومضت.

نفرتيتي"

8

يقف محمود وحيدًا مُرتديًا خاتمَه وخاتمَ نادية، يتحسسهما بإصبعه، وهو يراقب مها مرتديةً ثوبَ الزّفاف الكريمي اللّون، والذي صمّمت هي وأمّها أنْ يكون مختلفًا عن بقية الأثوابِ البيضاء، والذي خطفَ أبصارَ الجميع، ودمعتْ عيناه محدّثًا روحَ زوجه: "أعلمُ أنّكِ معنا، أشعرُ بدفء قلبك إلى جواري".

الفصلُ الرّابع

1

وقفَ محمود أمام أحمد وعلي مُعترضًا على ما يقولونه:

- لا أوافق على ما تقولون؛ فهي وصيّة أمّكما.

ردّ أحمد بهدوء:

- يا أبي، أنتَ على حقّ، ولكنْ مَن هو سعد هذا؟ وأين كان طوالَ الأعوام الماضية؟ هو لم يفكّر مرّةً في السّؤال عنّا، أو محاولة معرفة كيف نعيش، و.و.و.و.
- قال ربّك سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾[1]، ولو كانا مُشركين فصاحبهما معروفًا.

ربّت عليّ على كتفِ أخيه:

- كلامُ أبي صحيحٌ يا أحمد، أكيد الحلّ سيكونُ عند خالي نبيل... واردٌ جدًّا أنْ نجد عنده خيطًا يوصّلنا له إنْ شاء الله.

*****

نبيل:

---

[1] سورة الإسراء، الآية 23

- انقطعتْ أخبار أبيكما عنّي منذُ سنوات طوال، كما أنّه لم يأتِ إلى مصر أيضًا، وإلا كنت عرفت، ولكنْ مهلا... هناك صديقٌ لي على المقْهى كان قد عادَ من السّعودية منذ عام، وكان يعمل في نفسِ المدينة ربّما يدلّنا عليه.

*****

والدُنا سعد

سلامٌ لك نرسله أنا وأخي علي.

كيف حالُك يا أبي؟ مرّت سنواتٌ طويلة دونَ سماع أخبارك، توفّيت أمُّنا منذ عدّة أسابيع، وأوصتْنا بك خيرًا؛ فكيفَ حالك؟ ومتى ستأتي إلى الإسكندرية كي نراك؟

تخرّجنا أنا وعلي مِن كليّتي التجارة، والفنون الجميلة، ونعمل كشركاءَ في مشغلِ وشركةِ أمّي، وعمّي محمود، وأختنا الصّغيرة مها، نحن الحمدُ لله في حالٍ ميسور، وبإمكاننا الذّهاب إلى العمرة قريبًا وزيارتك، فهل تأتي إلى مكّة لتؤدّي العمرة معنا ونلتقي؟

نتمنّى لكَ كلّ الخير.

ابناك... أحمد وعلي

*****

كتب سعد رسالةً كان وقْعُها كطلقاتِ النّار على قلوب ابنيْه؛ إذْ أرسل لهما أنّه لا أبناء لديه في مصر، وأنّه قد أغلقَ هذه الصّفحة من حياته تمامًا، وكفاه سنواتٍ من الفقر مع أمّهم التي كانت شؤمًا عليه، وأنّه يعيش مع زوجتيْه المصريّة والفلبّينية، وأبنائه بخير حال، وسخرَ منهما قائلا:

"تُرى هل مازلتما تحْملان اسمي أمْ غيّرتماه إلى اسم والدِكما المدْعو محمود؟"

شعرَ محمود والشّابان بالحزن، ولكنّهم في النّهاية تقبّلوا الأمر، وأغلقوا صفحةً ما كان لها أنْ تُفتح لولا وصيّة أمّهم الحبيبة لهم.

2

وقفَ نبيل أمامَ محمود، وقال بحزم:

- هذه الأموال ليستْ من حقّي يا محمود.
- ما هذا الذي تقوله؟ أنتَ كنت معنا في العمل منذُ أوّل يوم، وحتّى يومنا هذا، كلّ ما بنيناه كان معَك، وما تركته لك أختُك هو هدية، والهديّة لا تُرَد.
- رحمها الله، كانت قبل موتِها تلحّ عليّ أنْ أستشير أخواتي البنات في أمرِ بيع بيت أبي، والابتعاد عنْ منطقتنا التي صارتْ فاسدةً ممتلئةً بالبلطجيّة وتجار المخدرات.
- انفذْ بجلدِك، وارحمْ نفسَك وعائلتَك يا نبيل.
- سيكون لكم أنتَ والأولاد نصيبٌ في البيت، فهل لديك توكيلٌ من مها لإتمام إجراءات البيع؟
- نعم، لا تقلق، وتوكّل على الله، وأسرع يا رجل، فخيرُ البرّ عاجله.

3

محمود:

- كم أنا مُتعَب يا أمّي، هزمتني الحياة.

ردّت الأمّ في وهن:

- أنتَ قويّ مثلَ أبيك، إيّاك واليأس، مَن منّا سيخلد؟ لا تنسَ قالها اللهُ لنبيّك في كتابه﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُون**﴾[1]
- ونعمَ بالله يا أمّي، متى سيأتي البناتُ وأولادُهم؟ اشتقتُ لضجيج هذا البيتِ كثيرًا.
- قمْ وارتَحْ، أنتَ في حاجةٍ إلى النّوم لساعةٍ في فراشِك القديم.
- بلْ في مكانِ أبي إنْ سمحت لي.
- بيتُك يا ولدي... هيّا قبل وصول العصابات.

*****

علا:

- لم تعدْ تأتينا كما كنت تفعل سابقًا يا محمود، هل كانت نادية مَن تأتي بك؟

منى:

[1] سورة الزمر، آية 30

- رحمها الله.

محمود:

- لا يا شقيّة، ولكنْ أنا مشغول للغاية، أزور أمّي دومًا، أنتِ مَن تتغيّبين عن زيارتها، وهذا ما يُحزنني منْكما، أمُّنا كبرت وتحتاج للأنيس.

منى:

- حاولتُ كثيرًا أنْ تأتي لتعيشَ معي، فرفضت قائلةً إنّها لم تعلمْ لها بيتًا سوى هذا منذُ تركت بيتَ أبيها.

محمود

- كلّنا لا نستطيع تركَ بيوتنا؛ ولذا علينا ألّا نتركها ونزورها بصفةٍ دوريّة، أنا سعيد أنّها تمضي وقتًا طويلا مع الستّ أمّ حسين جارتنا.

علا:

- صحيح... كلتاهما تسندُ الأخرى، ولكنْ صحيحٌ ما تقوله، سنزورُها كثيرًا، وربّي يخفّف عنها الكبر.

أمن محمود ومنى على قولها: "آمين." وقال محمود:

- هيّا إلى الطعام، ثمّ مشاهدة المباراة مع العصابة... ده الأهلي يا ناس.

علا ومنى:

- بيب... بيب... أهلي.

محمود:

- إنْ شاء الله سنفوز، ونكيد زوجَك الزّملكاوي يا علا.

علا:

- آه لو كنتُ أعلم كنت رددتُه إلى أهله قبْلَ هذه الزّيجة.

4
نفرتيتي

تسلّلت نفرتيتي خلسةً بعدَ الفجر
إلى شاطئ النّيل تحاول السّباحة قليلاً
لا يراقبها سوى النّهر والسّماء.

تراقصت جذلى ضاحكة مُستمتعة
تعوم وتغطس كسمكةٍ فضيّة لاهيةً بالماء.

سمعت فجأة عزفًا رقيقًا يدْنو منها
فإذا به فتى النّاي أخناتون يعزف
وينظر إليها بجلاء، ففرّت هاربة خجلي
مُحتفظة بنظرة عين وعَدَتْها
أنّها ستكون قريبًا امرأةَ بيته وأمًّا لأبنائه

*****

قرأ محمود الخاطرةَ التي كتبها في بدايةِ حياته الأدبية بعد زواجِه بنادية، وتذكّر مبتسمًا الحوارَ الذي دارَ بينه وبينها بعدما قرأها عليها...

- دومًا أحبّ ما تكتب، ولكنّ نفرتيتي الإسكندرانية عمرها ما نزلت البحر!
- يا لَلْعار... إسكندرانيّة لا تعرفُ السّباحة؟
- أبي كان شديدًا معنا، ولم نكنْ نذهب إلى الشّاطئ إلا قليلا، وكان العمل ثمّ العمل بعد مؤته.
- إذًا، سنذهب قريبًا إلى البحر لتستمتعي وتسبحي.
- في عمري هذا؟
- في أيّ عمرٍ البحرُ ينادي، وعلينا تلبيةُ النّداء.

يغلق محمود عينيه مناديًا:

- نادية... أناديك مثلما نادانا البحرُ يومًا؛ فهل أنتِ معي كما وعدتني؟ رائحتك في البيت تحتويني ولمساتُك في كلِّ ركنٍ فيه تعيدني إلى الذّكرى معك... ليتَكِ معي

5

يجلس محمود في انتظارِ أوّل رسالةٍ ترسلها له ابنتُه من لندن؛ حيث سافرتْ مع زوجها لاستكمال دراستيْهما، هو في الطبّ، وهي في تصميمِ الأزياء، ينظرُ إلى صورةِ نادية بجواره، ويقول لها: "ها قد عدتِ إلى الحياة بهذه الرّسائل التي سأتبادلُها مع ابنتنا قرّة عينك، هل كنتِ تعلمين يا نادية أنّ ابنتك تكتبُ الخواطر؟ لقد تركتْ لي الكثيرَ من كتاباتها كي أقرأها وأقيّمها وأناقشها في رسائلنا المقبلة... افتقدُ ابنتنا كثيرًا، وأفتقدُك أكثرَ، وأعلم أنّك تنتظرينني في العالم الآخر، ولكنْ فلتنتظري قليلاً فأنا أريدُ الاطمئنانَ على ولديْنا كي تكتملَ رسالتي معهما، وأريد أنْ أرى ولو حفيدًا واحدًا كي أريكِ صورَه، وأحكي له كمْ فقدَ حين رحلت جدّةٍ مثلك يا نفرتيتي... هل تعلمين أنّني ما زلت مُحتفظاً بكلّ رسائلنا؟ وأقرأها بين الحينِ والآخر كي أستعيد عبقَ ماضٍ لستُ أنساه؟ أفكّر أنْ أكتب لك الرّسائل كي تكون ذكرى لأبنائي مِن بعدي، وأتركها لهم كنزَ ميراثَ حبّ ومودّة... لقدْ أحرقت كلّ رسائلك الأخرى التي كنتِ تحتفظين بها، فهي حكاياتُ أشخاص وأسرارهم الخاصّة، ولا يليق بأحدٍ منّا أن يقرأ محتوياتها... لا تقلقي؛ فزوجُك كما كان محبًّا لكِ، فهو يعلمُ رغباتك حتّى وأنتِ في عالم آخر.

*****

أبي العزيز

أفتقدُك يا أبتِ، وأفتقد بيتنا... أحنّ إلى صورةِ أمّي-رحمها الله-على جدار غرفة جلوسنا، وأشتاقُ للجلوس أمامَك كي نتنافسَ في لعب الشطرنج وسطَ ضجيج إخوتي وهُم يتشاجرون كعادتهم، ونتضاحَكُ أنت وأنا ونتجاهلُهم، وتبتسم أمّي لنا.

متعِبَة هي الغربةُ أبي... الجميعُ في سباقٍ يتنافسون... الجميعُ ينظرون لي على أنّني عربيّة جاهلة (ما لها وما لنا)!

أخاف يا أبتِ... أخاف مِن الانخراط معهُم... أخاف التحدّي... أهابُ الفشلَ كما لو أنه سيكون وصمةَ عارٍ على جبين بلادنا.

كمْ علّمتني يا أبي الإقدام، وألا أخاف خوضَ معاركي، وكمْ نجحت، وكم نجحت، لكنّني أخاف السّقوطَ وحيدة هنا.

ابنتك

مها

*****

نادية

هل قرأتِ معي ما سطّرتْهُ ابنتُنا؟ تأكلها الغربةُ وتخيفُها؛ ولأنّنا جرّبنا الغربةَ أنت وأنا... علينا أن نسدّد خطاها، ونشدّ أزْرها، ترى ماذا نكتبُ لها؟ أراكِ تضْحكين، وتقولين... ها قد عدت لمراسلتي!

6

فتحتْ مها رسالةَ أبيها، وقرأتْ وهي تضحكُ، وتبكي في آنٍ واحد:

*****

ابنتي...

الافتقادُ بعد مسافات، وزمن ثقيل، وتزاحمُ ذكريات... روّضيه حصاناً يعبر بكِ أسوارَ الاشتياق، ويقفز عن عقارب السّاعات والغربة.

*****

أبي الحبيب...

زرت خالتي نسمة في لندن، ورحّبت بي، وبكيْنا أمّي الغالية كثيرًا، وحدّثتني عمّا حدث لها ولزوجها من خالتي نهلة وزوجها، وتمنّيت لها أنْ تزور مصر في القريب العاجل، فقالت لي بحزن "ربّما يا ابنتي... مَن يدري؟"

لم أتخيّل أبدًا يا أبي أنْ يظلم الناسُ بعضَهم البعض –خاصّة الأقارب– أدعُو اللهَ كثيرًا أنْ يحفظكم لي، وأنْ نتواصل كما نحن بقلوبٍ طيّبة متراحمة.

آهٍ يا أبي... كمْ أفتقدُك، وأفتقدُ مصر ودفئها، هذا البلدُ الذي نعيش فيه يتّسم بالبرود في كلّ شيء.

أحمد اللهَ أنّهم لم يصيبونا بعدْوى البرود أثناءَ الاحتلال الإنجليزي على مصر، أعلمُ أنّك تضحك الآن، أفتقد ضحكاتِنا معًا، عزائي أنّ زوجي خفيفُ

الظّل مثلك، نتضاحك حين نتقابل على فنجان قهوة في الوقت المستقطع بين الدّراسة والعمل والمذاكرة.

أريدُ أنْ أهمس لك بسرٍّ، وأترك لك أمرَ إبلاغه لأمّي، أحبّ كثيرًا أمرَ رسالاتك لها.

7

نادية

توفّيت أمّي الحبيبة في هدوءٍ وهي جالسةٌ على سجّادة صّلاة الفجر، حين ذهبتُ إليها يومَ الجمعة باكرًا كعادتي، فوجدتُها على سجّادة الصّلاة فاقدةً للحياة.

آه يا نادية!

تنفرط حبّاتُ العقد حبّةً تلوَ الأخرى، فمتى الحقُ بكم؟ يوجعني قلبي على مها فخبرٌ كهذا في غربتِها صعبٌ للغاية، ولكنْ لله الأمرُ من قبلُ ومِن بعْد، تقبّلت الأمر، وبكتْ كثيرًا، وظلّت تحدّثني عن الموت الذي يأخذُ منّا أغْلانا، ولكنّها هدأت فما باليد حيلة.

انتقل حواري معَها إلى الخلافٍ مع زوجها حولَ الزّيارات بينهما وبين نسمة أختك، فقد يؤذيهما هذا نظرًا لتورّط أختك وأسرتها في المشاكل مع نهلة وزوجها السابق، ولا أخفيك سرًّا أنّي خفتُ عليهما، وتواصلتُ مع الأستاذة هدى التي طمأنتْني قائلةً لي ألا أقلقَ، فتحدّثت مع زوج ابنتك وأعلمتُه بذلك، فاطمأنّ، وقال لي إنّ والدته أعلمتْه بهذا، وأنّه لا مشاكل بينه وبين مها؛ بل هو مجرّد نقاشٍ ينبع من خوفِه، تعلمين أنّه شابّ عاقل، وانتهى الأمر ولله الحمدُ.

*****

نادية

حبيبةَ عمري الماضي، ونديمةَ الحاضر، ورفيقةَ المستقبل... أبشري، ابنتُك الصغيرة تحمل لنا هدية... حفيدًا، أو حفيدة... كم تمنّيت لو كنتِ جواري أنا وولديْنا ونحنُ نقرأ رسالتَها وهي تزفّ لنا البُشرى.

عندي لكِ بشرى أخرى... اقترب زفافُ ولدِنا البكريّ، وسأرسل لهما وزوجِها تذاكرَ سفرٍ هديّة منّي كي يستطيعا المجيء ولوْ لأيّام؛ أمّا ولدنا الأصغر، فأشعرُ به قد وقعَ حبًّا وهيامًا في مصمّمة الأزياء التي تعمل لدينا بالشّركة... هي تشبهك كثيراً؛ لكنْ لا تغاري فأنا أتحدّث عن حبّكما للعمل، وليس الحسن والجَمال، فأنت الأحلى، وأنتِ لي نفرتيتي التي عادتْ للحياة فأحيتني.

ها قدْ أنساني حسنُك الحديثَ عن ابننا... صبرًا... لا تتصنّعي الغضب، سأحكي لك كيف عرفت، لقد وجدتُه يقرأ في كتبي ودواوينِ خواطري، ويهيم سارحًا في دنيا أعلمُها جيدًا.

هل تعلمين أن له نفسُ عيونك التي كنتُ أرى فيهما قلبَك حينما تقرئين ما أكتبُ وتناقشيني... بدأ هو الآخر يناقشني فيها كلّما قرأ لي، ثمّ أصبح يلازمُ الشّركة، ولا يتركها، والتزم بعملِه بصورةٍ أسعدتني، ولطالما وقفَ إلى جوار فاتنتِه (ندى) ينظر لها وهي ترسمُ أو تعمل، فإذا ما التفتتْ ونظرتْ إليه

أجدُهما يبتسمان هادئين، ويتعاهدان في صمت، لذا استعدّي... سنخطب لابننا في الأيام المقبلة.

*****

نادية

حينما زرتُ قبرَكِ اليوم كدتُ أضعُ صورةَ حفيدنا حماده على القبر لتأنسي بها، لكنّي اكتفيتُ برفعها أمامَ القبر كي تريها... هل رأيت حفيدًا بهذا الجَمال من قبل؟

يقول نبيل إنّه يشبه حماده كثيرًا، ترى أ يُشبهه حقًّا؟ أعلمُ أنّك الآن تحتضنينه قائلة: "وهل هناك مَن هو أحلى من حماده؟" لكنْ تذكّري يا امرأة المثلَ الذي يقول، "أغلى الولْد ولْدُ الولد" ولا تقسي على حماده الصغير.

سأذهبُ إلى مها الشّهرَ المقبل لأكون جليسةَ أطفالٍ لحفيدي حتّى تنتهي مها مِن مناقشة الماجستير.

"عشنا وشفنا الأديب الكبير بقي بيبي سيتر".

أفكّر في كتابة يوميّاتي معه بصورةٍ فكاهية، وأرسلُها إلى الجريدة لنشرها أسبوعيًّا، ولنَرَى ردودَ فعل جمهوري... هل يتقبّل هذا الشّكل من الكتابة أم سيغضب؟

أعرف... أعرفُ أنّني أكتبُ المسرحيّات وسيناريو الأفلام الكوميدية، لكنّ عمودي بالجريدة كان ومازال رومانسيًّا يحمل رائحتك... فلنجرّب.

8

يوميّات كاتب أصبح جَدًّا (١)

استيقظَ حماده اليومَ مبكّرًا على غير عادته، وأنا أصبحت شيخًا أحتاجُ إلى النّوم في هذه الساعات الباكرة الباردة.

هذه البلاد لا دفء فيها سوى دفء عائلتي، ودفء أيّ مصري أقابله في الشّوارع، فننظر لبعضِنا البعض، ونتعارف بأعيننا، ونبتسم، ونمضي كلٌّ في طريق.

نعودُ إلى حماده...

لا تمنع هذا الطّفل الوسيم وسامتُه من عمل أشياء مقزّزة تحتاجُ إلى تغيير ما يسمّى بالبامبرز!

أفتقدُ زوجتي رحمها الله... كانت ترفضُ أنْ أقوم بهذه الأعمال مع ابنتنا، وتقول: "لا يليقُ بكاتبي المفضّل أن يقوم بتغيير الحفّاضات.".

يحتاجُ هذا العمل لفريق مساعدة! فحمادة كثيرُ الحركة، وهذا يؤدّي إلى اتّساخ رقعة كبيرة وأشياء كثيرة حولنا، كما أنّه يحْبو على الفراش فنتسابق أنا بأنفاسٍ متسارعة وهو بضحكاتٍ مجلجلة تطربني، وما أنْ ننتهي من هذا حتّى تبدأ وصلةُ الطّعام، وهي الأخرى كارثة؛ فهو يعشق أنْ يبصق الطّعام، وحينما أصرخُ يضحك جذلاً ويعيدُ التّجربة، وما أنْ ننتهي من المعارك حتّى تبدأ

قيلولته، التي أحكي له فيها عن جدّته–رحمها الله–وعن أهله، وعن مصر؛ كي لا ينساهم، فينامُ حماده.

أتمنّى لو أستطيع أنْ أغفو بين يديه، ولكنْ لا بدّ من القيام لتنظيف ما خلّفتُه أنا وحماده قبلَ عودة ابنتي... هل تعلمون شيئًا يا قرّائي الأعزاء...

أودّ لو أمنحُ زوجتي–رحمها الله–قلادةً وشهادةَ تقدير لأنّها كانت تعمل ولديْها ثلاثة أبناء، ولم أدخلْ يومًا إلى بيتنا ورأيتُ هذه الحظيرةَ التي تركناها أنا وحماده وراءنا.

محمود

يوميّات كاتبٌ أصبح جَدًّا (٢)

اصطحبتُ حماده معي اليومَ إلى السّوبرماركت لشراء الطّلبات التي طلبتْها منّي مها، ويا لها من مغامرة، وضعتُه في مقدّمة عربة السّوبرماركت، وكلّما وضعت شيئًا في العربة أمسكَ به حماده، وألقاه أرضًا، والحمدُ لله أنّني أمسكتُ بطبق البيْض في يدي، وإلا كانت ستحدث كارثة.

حماده طفلٌ أسمر جذّاب–طالع لجدّه–يتهافت عليه الأجانب، فأقرأ له الصّمدية والمعوذتين، وأرْقيه من عيونِهم الملوّنة، فجدّتي كانت تقول: "أصحابُ العيون الملوّنة يحسدِون أكثر من أصحاب العيون غيرِ الملوّنة."

اشتريتُ أقلامًا جديدة، وأوراقًا، وعليّ أنْ أخبئها من حماده؛ إذْ يحبّ تمزيقَ الأوراق التي أكتب فيها، واللّعب معي متخيّلاً أنّي ألاعبه، أنساني هذا الطفلُ الكتابةَ حتّى أنّي لا أستطيع الانتهاء من كتابةِ مسرحيّة، وعدتُ بإرسال فصولِها الأخيرة لصديقي المخرج.

هل تعلمونَ شيئًا يا قرّائي الأعزّاء... أتمنّى لوْ كانت نادية هنا معي، كانتْ ستسعد كثيرًا معي أنا وحماده، وكانتْ لتضفي بهجةً علينا أفتقدها كثيرًا.

محمود

9

نادية

عـدتُ مـن لنـدن كمـا تعْلمـين... تنتظـرُ مهـا أنْ ينتهـي زوجهـا مـن الماجستير، وكانت تريدُ العودةَ إلى مصر وتركه يكمل دراسته، ولكنّني شعرتُ أنّها ستفعل هذا من أجلي، فرفضت... لا أحبّ أن يعيش زوجان مبتعدان عن بعضهما، ونصحتها بعدمِ التّفكير في هذا وحين وعدتُها بعودتي قريبًا للزّيارة انشرح قلبُها، وهدأتْ قليلا.

لعبتُ معها الشطرنج مرّاتٍ قليلة؛ إذْ أنّها كثيرة الانشغال، وحماده يأخذُ كلّ وقتها في المنزل، واستعدنا الكثيرَ من الذّكريات، نفتقدُك كلانا بشدّة يا نفرتيتي... ليتك معنا.

حبيبتي، أين أنت؟ أشعرُ بفرحك أنّنا زوجنا الأولاد، ولكنّني أشعرُ بحزنك أنّهم ذهبوا وتركوني أعاني وحشةَ الوحدة والشّيخوخة، ما زلتُ بصحّتي يا امـرأة، ولمْ أدخـل بعْـدُ في الشّـيخوخة، أعلـم أنّـكِ الآن تضـحكين وتتساءلين... متى تأتي؟ لا تخافي؛ سنكون معًا قريبًا.

10

ظلّت نهلة تستثمرُ أموالها، وتغضّ الطّرف عن زوجها وأبنائها، والسّجن الذي صاروا نزلاءه دومًا، تركتْ لهم المنزلَ واستأجرتْ منزلا على البحر بعيدًا عنهم، زارها زوجها سليمان وولداها في أحد الأيّام، ودار بينهما ما يلي:

- نهلة... زوجتي الحلوة كنتِ تعتقدين أنّنا لن نصل إليكِ؟

- ماذا تريدونَ منّي؟ تركتُ لكم دنياكم وتأتون خلفي! اعتبروني متّ مثلما ماتت نادية.

- أختُك رحمها الله ماتت وتركتْ لزوجها وأولادِها ثروة... أصيلة.

تضحكُ نهلة ساخرة وتقول:

- مالها حلال.

ردّ سليمان في تجهّم:

- ومالي حرام؛ فأعيديه لي.

- مالك؟! لا مال لكَ عندي... أنا كنتُ آخذُ نصيبي من عمليّاتك القذرة، وأتبرّع به للجمعيات الخيرية.

أمسكَ سليمان برقبتها:

- الجمعيّات الخيرية يا تقيّة؟ بركاتك... أخبريني أينَ أموالي... وإلا قتلتك، "وحطلع منها زيّ الشّعرة من العجين" وسيقال قتلَها البوّاب أو الخادمة طمعًا في مالها... انطقي.

*****

قُتلتْ نهلة وكانتْ نتيجةُ التّقرير الشرعي "ضربٌ أفضى إلى الموت."
ويُحكم بالإعدامِ على سليمان، وبالأشغالِ الشّاقة المؤبّدة على ولديه".

11

- فقدتُ أختين، والثالثة بعيدةٌ عنّي بُعد المشرقين.

- رحمهنّ الله، ورحمَنا يومَ نصير إلى ما صاروا إليه... هي الحياة يا نبيل.

- ونعْمَ بالله.

- لديّ أمر أريدُ أنْ أستشيرك فيه.

- كلّي آذانٌ صاغية.

- أنتَ تعلم أنّ كلّ مال نهلة الموبوء لديّ في حساب مشترك بيني وبينها، وقد أغلقته قبل موتها بأيام، وتركتهُ باسمي فقط، لا أدري هل يُنْذِر الموت أخواتي أو ينذرني؟

- عجيب!

- المهمّ الآن أني لا أريد أنْ يبقى هذا المالُ لديّ، أشعر به كابوسًا، كما أنّي لن أتركه لأبنائي ولا حتّى لأبناء نهلة، إذ أتمنّى أن يخرجوا من سجْنِهم بغير حالهم الذي دخلوا عليه.

- هذا سليم جدًّا.

- جميل... أحبّ أن أدعَ هذا المال في حساب جمعيّةِ صديقات نادية، رحمها الله، وفي حساب مشروع العمرات.

- ولكنّ هذا مالٌ حرام.

- وهو ليس مالنَا، لقد سألتُ الكثيرين، وفي هذه الحالة لا يكون مالا حرامًا.

- سيفرح هذا السيدات الثلاث.

12

أستاذ محمود

هذه رسالةُ عرفان من ثلاثتنا... أنتَ لا تدري كمّ البهجة والحبور بعدما تسلّمنا المال الذي أرسلته إلينا، يا الله! كمْ بإمكاننا الآن التوسّع في مشروع العمرات'، وغيره من الأفكار التي تشغلنا.

رحمكِ اللهُ يا نادية؛ يا مَن كنتِ السّبب الأوّلَ في كلّ هذا الخير.

تحيّاتنا.

العنود، بسمة، أميرة

13

نادية

لنْ تصدّقي مَن زارني اليوم... زارني هاشم! نعَمْ هاشم يا نادية، هاشم اليوم غير هاشم الجبّار الذي عرفناه، يجلس على كرسي متحرّك، أصابته جلطةٌ في المخّ بشلل، جاء يتوسّلني أن أسامحه، ويتمنّى أنْ تكوني قد سامحتِه، واعترفَ لي أنّه هو مَن أوغر صدرَ سعد على حرق المشغل، وبعد تهديد الأمير له بالرّفت والسّجن كان يتتبّع أخبارنا في صمت طوالَ هذه السنوات.

يا الله يا نادية!

حزنتُ واللهِ لما أصابه، وقلتُ له إنّني بالطّبع سامحته، وأنّك لم تكوني من النّساء اللاتي تحبسُ في قلبها الغضبَ أو مشاعر الانتقام والدّعاء على مَن ظلمها، على العكس من ذلك كنت دومًا تسامحين مَن ظلمك، وتقولين لي: "نسامح كي يسامحنا الله" عندها بكى هاشم، وقال "علّ الله يسامحني أيضًا."

14

اتّصل عليٌّ بمحمود ليبلغه أنّ أحمد نُقل إلى المستشفى، ولا يعلمون ما به، ذهبَ محمود مسرعًا إلى المستشفى حيث وجدَ عليًّا وزوجةَ أحمد ينتظرونه، فصرخ فيهم:

- أين أحمد؟ ماذا حدث؟

احتضنَه عليّ؛ محاولًا تهدئته:

- اهدأ يا أبي أرجوك، سيكون كلُّ شيء على ما يرام، أحمد دخل لعمل أشعّةٍ مقطعيّة على العين.
- العين؟ لماذا؟ ماذا حدث له؟

ردّت أمينة زوجتُه وهي تغالب دموعَها:

- كان يجلس معي في المكتب، حين قال لي أنّه يشعر بمتاعب في بصره وثقلٍ في جانبه الأيمن وتنميل، وصارحني أنّه يشعر بهذا الإحساس منذ عدّة أسابيع لكنّه يزدادُ وطأة، وقام ليقف فإذا به يقعُ أرضًا إذْ خانته قدماه وساقُه اليُمنى، فناديتُ عليّ وجئنا به.
- وماذا قال الطبيب؟
- طبيب المخّ والأعصاب طلب هذه الأشعة.
- سلّم يا ربّ سلّم، وما دخل المخّ والأعصاب بالعين؟

- فلننتظر لنرى... خيرٌ إن شاء الله.
- يا ربّ يا بنيّ... يا ربّ.

يخرج أحمد من غرفةِ الأشعّة، ويقرّر الطبيب حقنه بثلاثَ جرعات من الكورتيزون ممتدّ المفعول، مما يتطلّب انتظاره في المستشفى؛ حيث لا بدّ وأن تؤخَذ تحت الملاحظة والعناية، وحينما يسأله محمود في أيّ شيء يشُك، يرّد الطبيب:

اشتباه مرض اسمه MS[1]

- ومايعني هذا؟

- هو مرضٌ مناعي يصيب أعصابَ الجسم، ويسبّب نوبات التّنميل والثّقل التي شعرَ بها الأستاذ أحمد، كما يسبّب مشاكل في عصب العين، وهذا ما ظهر واضحًا في الأشعة المقطعيّة.

- وكيف نتأكّد من هذا؟

- سنقومُ بعمل أشعّة رنين بالصّبغة على المخ، ولكنْ أحيانًا لا تظهر لنا الأشعة وجوده، وقد نحتاج لأخذِ عيّنة من النّخاع، وإرسالها إلى ألمانيا، وبكلّ أسفٍ أحيانًا لا تظهره عينة النّخاع أيضًا.

---

[1] MS : مرض التصلّب اللويحي المتعدّد، أو التصلّب العصبي المنتشر المسمّى Multiple Schelerosis ويظهر كالتهابات منتشرة في الجهاز العصبي المركزي (الدماغ والحبل الشوكي، والأنسجة العصبية) نتيجةً تلفٍ في نّخاع الغشاء الواقي المحيط بالألياف العصبية، ومؤّكد علميًّا أنّ هذا التّلف نتيجة اضطرابِ خلايا الجسم المناعية المقاتلة، ما يسبّب محاربتها للأنسجة العصبيّة الطبيعيّة، اعتقادًا أنّها موادّ غريبة.

- ما هذا الذي أسمعه؟ وكيف لنا التّأكد؟
- ردّة فعْل الجسم مع الحقن سيظهر لنا الكثير، فأحيانًا يكون المريض مصابًا به إصابةً متوسطة فلا يكشف لنا المرض سوى نوبةٍ شديدة.
- وماذا تفعل هذه النّوبة الشديدة؟
- فلننتظرْ لنرى سيدي.
- اصْدُقني يا بني.
- بعضُ الحالات قد تتطوّر بصورةٍ سيّئة، ويُصاب المريض بالشّلل، أو انعدام الرؤية، أو اختلال التّوازن، وغير ذلك.
- والعلاج؟ ما هو علاجه؟
- لا يوجد علاجٌ نهائي بل عقاقير وحقن تسيطرُ على النّوبات، وللأسف قد تكون متواضعةَ الفعالية، مع الاهتمام بالصّحة النفسية والرياضة والأطعمة الغنية ب فيتامينD وفيتامين B وهناك مَن يعالج بحقن الإنترفيرون وتحسّنت صحتهم رّغم أنّها حقن خاصّة بعلاج مرض الالتهاب الكبدي الوبائي، إلا أنّه اكتشفت فعاليّتها في علاج MS وبعض حالات السرطان.
- عذرًا... لكنني لا أوافق على هذا... أرفضُ إعطاء ابني هذه الجَرْعات، وسأقومُ بعرضه على أكبرِ طبيبٍ للمخّ والأعصاب في القاهرة، أو سأسافر به إلى أيّ بلد.

- سيّدي... لدينا في القاهرة جمعيّةٌ تقوم بالمساعدة على الوصول لحلّ مع حالات اشتباه هذا المرض، وكيفيّة التحكّم فيه، كما أنّني رأيت بعيني حالات MS وأعلمُ يقينًا أنّنا نتخبّط في أعراضه ومشاكله حتّى نصل إلى تأكيد التشخيص؛ فهناك بعضُ المرضى ظلّوا للأسف لسنوات يشخصون بأشياء أخرى، ثمّ ينتهي بهِمُ الأمر لهذا المرض.
- هو ابني يا دكتور.
- وهو مريضٌ أقسمت أنْ أعالجه هو وغيره بكلّ ما استطعتُ يا سيدي، لو لمْ أكنْ أعلم ما أتحدث عنه لكنتُ صارحتك، أنا طبيبٌ للأمراض النفسية والعصبية، وتمرّ عليّ حالاتٌ كثيرة يوميًّا، أرجوكْ ادْعُ الله له، ودعْنا نسكنُ آلامَه، وننتظر لنرى.
- ولمَ لا يراه جرّاح مخّ وأعصاب؟
- حالةُ ابنك لا تحتاج جرّاحًا.
- قدْ لا يكون هو المرض.
- سنحمدُ الله عندها، ونبحث عن سّبب الأعراض الموجودة لديه الآن.

يدخل محمود والأسرةُ على أحمد، الذي يبدو منهكًا يتحدّث بصعوبة، فيطلب منه محمود أنْ يهدأ حتى تنتهي جرعةُ الحقنة، ويقوم بعمل الأشعّة في الصّباح، ويطلب من عليّ اصطحاب زوجة أخيه إلى بيتِ أمّها كي ترتاح،

على أنْ يقوم هو بالمبيتِ مع أحمد... تحاول أمينةُ الاعتراض، ولكنّها ترضخ للأمر في النهاية، حاول محمود أنْ يكون مبتسمًا:

- ها قدْ أصبحت مع ولدي البكريّ وحدنا... يا لهُمْ من مزعجين.

يبتسمُ أحمد، ويقول:

- لوْ كانت أمّي حيّة لنهرتْك قائلة: "لا تقلقْ واهدأ؛ فما لله... لله."
- أنتَ مثلها يا ولدي، تتقبّل الأمورَ بهدوء، ولكنّي أعلمُ أنّ قلبك وعقلك لا يتوقّفان عن التّفكير، هل تستطيع التحدّث معي، أم تريد الراحة الآن؟
- أنا أشعرُ بالتحسّن والحمدُ لله.
- إذًا احْكِ لي ماذا حدثَ لك؟ ومتى بدأت الأعراض؟
- منذُ حوالي أسبوع أو أكثر، كنت في المشغل وشعرتُ بأنّ الرؤية لديّ مختلفة، وظننت أنّ ذلك بسبب أنّني كنتُ في الخارج طوالَ اليوم، وقد يكون هذا بسبب الشّمس والإجهاد، ثمّ شعرت بثقلٍ في ساقي، وذراعي اليمنى، وعدم اتزان، واهتزّ القلم في يدي عدّة مرّات؛ فقرّرت الذّهاب للمنزل للراحة.

- علينا اللّجوء للطبيب كمتعلّمين مهْما كان ما نظنّه من أعراض بسيطًا.
- معك حقّ... لكنّ الأعراض اختفت، ثمّ أصابتني اليوم بصورةٍ أشدّ من السابق مع تنميل وشعورٍ بشيء لاسعٍ في عيني اليمنى.
- يا الله يا ولدي... دعْنا نتعشّم الخيرَ فيما ستأتي به الأيام.
- هل سيعود عليٌّ؟
- نعم... سيجلب لي بعضَ الأشياء من المنزل.
- إذًا فليجلبَ الشّطرنج، لن تحلو السّهرة بدونه.

يضحكُ محمود قائلا:

- لم تتقبّلْ هزيمة المباراة السّابقة بصدرٍ رحْب كما أرى.

15

نادية حبيبتي،

أينَ أنت؟ هل تشعرينَ بما أشعر به الآن وأحمد مستلقٍ أمامي مُتعَبًا؟ هل روحُكِ معنا تهيمُ قلقًا؟

صدقًا... أنا قلقٌ عليه، ولا أفهمُ شيئًا فيما يتحدّثون عنه... ما هذه الأمراضُ التي أصبَحْنا نسمعُ عنها هذه الأيّام؟

تعبتْ منى أختي منذ أسابيع، وشخّص الطّبيب حالتها بقصورٌ تامّ في الغدّة الدرقية، وأطلق عليه اسم يابابي، وحينما سألتها: ولمَ هذا الاسم؟ ضحكتْ قائلة أنّه نسبة لمن اكتشف المرض، وفهمتُ أنّه أيضًا مرضٌ مَناعي!

أصبح الجسدُ يحارب بعضَه بعضاً، فيقوم بالهجوم على جزءٍ ممّا فيه على أنّه مرض أو فيروس، فيصيبُ هذا الجزءَ في مقْتل، كما حدثَ مع منى، انْتظريني قليلا كي أتذكّر الاسم... نعمْ هو هاشيموتو[1]... انْظري لما وصلْنا إليه في زمنِ الحداثة والتّكنولوجيا! أمراضٌ لم نسمعْ عنها أبدًا، أو لعلّها كانت موجودةً بالفعل، ولم يكتشفْها أمثال السّيد هاشيموتو هذا.

أعدُك أنْ أهتمّ بأحمد حتّى يتعافى أو يتقبّل أمرَ مرضه، لا قدّر الله، ويقاومه.

---

[1] مرض هاشيموتو: مرض يهاجم خلالها الجهازَ المناعي الغدّةُ الدّرقية، فتفقد قدرتَها تمامًا على إفراز الهرمونات المسئولة عنْها للجسد.

لا تقلقي؛ فأبناؤك جزءٌ مِن روحك أستمدّ منهم القوّة والرّغبة في البقاء.

*****

نادية

أخبرْنا الطبيبُ أنا ما يُعاني منه أحمد، هو بالفعل مرض MS وعلينا الانْضمام لجمعية MS في القاهرة كي يتفاعلَ مع الأطباء والمرْضى، ويتعلّم كيف يتعايشُ مع مرضه بدنيًّا ونفسيًّا وصحيًّا، سأصحبه وزوجتَه خلال يوميْن يا قرّة العين.

16

نادية

أصيبتْ زوجةُ ابنِك أمينة بالانهيار، ولن تستطيعَ مرافقتنا إلى القاهرة، أخْبرني والدها أنّ ابنته أضعفُ مِن أنْ تتعامل مع مريضٍ مثل ابننا، وحدّثني بمواربةٍ أنّه يحمدِ اللهَ أنّهم لم ينجبا حتّى اليوم؛ فهذا أحسنُ لكليهما.

علّمتِني فيما مضى أنْ أعذرَ الآخرين، وأنا أعذرُهم فما قرأته من قصصٍ لمرضى MS على الإنترنتْ جعلني أعذرُهم، والفتاةُ شابّة قدْ لا تستطيع التعايشَ مع حالةِ ابننا، فالمريضُ يحتاج إلى تهيئة نفسيّة، هو ومَن حوله، كي يتقوّى بهم... عذرتُهم مِن أجل هذا ولكنّ همّي الآن ليس هُم؛ بل ابننا، ماذا أخبره؟ كيف أمهّد له أنّ الأمر قد وصلَ إلى انفصال؟

كمْ أتمنّى لو كنتِ معي... لتحدثيه بروحٍ منفتحة، وقلبٍ شجاعٍ لا يهاب، كنتِ تعلّمينا كثيراً من الدّروس؛ لكنّك لست هنا، وأنا سأحاول... أعدُك أنّني سأحاولُ وسأنجحُ، ليس مِن أجلي؛ ولكنْ من أجل أحمد، ومِن أجلك.

محمود

17

- سعيدٌ أنا بمعرفتِك دكتور حسن، فلـوْلاك ولـوْلا خبرتك ونصائحك لا أدري كيف كان سيصبح حالي.
- وأنا سعيدٌ أنّ لديّ مريضًا مقاتلا مثلك وعائلة تكاتفتْ لمقاومة مرضٍ أهلك الكثيرين... أظنّك رأيت في الجمعية الكثيرَ من المرضى الرّافضين للمرض أو المتعَبين بسبب عدم تعاونِ أسرتهم معهم، وتقبّلهم كمرضى يحتاجون كلّ رعايةٍ واهتمام، فيدخلون مع الأسف في دوائر الاكتئاب، ويُصاب العديدُ منهم بحالةٍ نسمّيها توحّد MS إذْ يعتزلون الناس، ولا يكادون يخرجونَ من غرفاتهم، وهذا يزيد الحالةَ تزداد سوءًا، ويأخذ منحنى الصّحة في التّدهور فيصعبُ علاجه.
- نعمْ... رأيتُ عدّة حالاتٍ بالفعل، وحزنتُ لرؤيتهم على هذا الحال، وساعدْني هذا كثيرًا؛ كما ساعدني أبي وأخي حتّى أنّهما تناوبا على حضور الجلساتِ معي في اجتماعات الجمعية في القاهرة، ويكتبان، ويقرآن في الإنترنتْ أكثرَ منّي.
- هذا من حُسن حظّك يا أستاذ أحمد، وكما يقال، (التّشخيص نصفُ العلاج) وأنا أقول: الاستعداد النّفسي، وقبول الحالة هو النّصفُ الآخر منه.

*****

- تعلّمت يا أبي في هذه الشّهور ما لم اتعلّمه في سائر عمري.
- تأتي في حياةِ كلّ منّا فترةٌ ذاتَ تأثيرٍ قوي يا بني، وأنا أحمدُ الله أنّ لـديك شخصـية مقاتلـة صـامدة، مثـلَ أمّـك رحمهـا الله، فتقبّلت الكثيرَ من العثرات، وعدتُ واقفًا قويًّا.
- صـدقًا... لقـد سـألت نفسي لمَ أنا؟ لمَ أصـابُ بهـذا المـرض في عمري هـذا وتهجرني زوجتي ضعفًا وخوفًا كما لو كنتُ مصابًا بالجـرب؟ ثمّ هـدأت نفسي حينمـا رأيتُ مرضـى MS وتفـاوت إصاباتهم؛ فمنهم مَن فقَدَ بصرَه، ومنهم مَن شُلّ، و... و... و... فشعرت أني في نعمةٍ إذ اكتشفنا العلة مبكّرًا، وسأقاوم ما بقي لي من عمر، أمّا أمينة فكلّ إنسانٍ لما جُبل عليه، وهي من الشخصيات التي لم تكنْ لتستطيع مساعدتي على اجتياز كل هذا.
- أعلمُ أنّ قلبك حزن أحيانًا، وغضبت أحيانًا أخرى؛ لكن كان لديك إيمان دائم، زرعتْهُ أمّكم فيكم... إيمانٌ بأنّ كلّ أمرٍ من الله خير.

ردّد أحمد في خفوت:

- أتذكّرُ الآن جملةً كانت تردّدها دومًا عند المحن: "ما حجبَهُ الله كان أعظم" وبالفعل... ربّما ما حجبه الله عنّي كان أعظم ممّا أنا فيه بكثير، فالحمدُ لله.

- الحمدُ لله على سلامتك.

18

كتبَ محمود:

إهداء

أهدي روايتي هذه إلى زوجتي الحبيبة الرّاحلة نادية، داعيًا الله أنْ يلحقني بها قريبًا؛ فافتقادي لها يزدادُ يومًا بعد يومٍ، وعدم الأنس بها يوجعني.

محمود

19

نادية

تمّ تكريمي اليوم بجائزة الدّولة التقديرية، وجاء التّكريم بعدَ نشْر روايتي (رسائل نادية) لتكونين وكعادتِك سببًا في كلّ خير لي... لا تخشي شيئًا، استأذنت صديقاتك في أمر الرّسائل، ووضعتُ النصَّ بين أيديهنّ قبْلَ طباعته أو تقديمِه للمسابقة، وحكينَ لي كلّ ما يخصّ الرّسائل؛ فأنا كما تعلمين أحرقتُها دونَ أن أقرأ كلمة.

وقفَ إلى جانبي أبناؤنا الثّلاثة وأزواجهم والأحفاد، سأريك الصّورة عندما تصلني عبر الإيميل، ستتساءلين مرّةً ثانية مستنكرةً الإيميل، فأقول لك، هو وسيلةُ العصر الحديث الآن، فالكلّ تناسى الرّسائل الورقيّة لتصبح إيميلات إليكترونية، نكتبها ونرسلُها ونقرأها على الكمبيوتر الذي رفضتِ استخدامَه في المشغل والشّركة قبل وفاتك، وقلتِ لنا: "سأتركُ لكم (التّكنولوبيا بتاعتكم) ودعوني للماضي.".

ستشعرينَ بالحزن والأسى علينا، وستقولين إن للرّسائل المكتوبة بخطّ اليد –تلك التي نتسلّمها بقلوبنا قبل أيدينا–رونقٌ وبهاءٌ، وسأوافقك إذْ يكفيني أنْ أتشمّم الورقَ الذي كتبت لي عليه لأشعرَ بك جواري، ولكنها التّكنولوجيا المتسارعة فحتّى الصّور لم تعدْ ورقية، وأصبحت حبيسةَ كمبيوتر أو موبايل... تسارع تكنولوجي لا أدري علامَ سينتهي؟ فالكمبيوتر أو الموبايل إنْ تلفوا ضاعت كلّ الصّور والذكريات.

تجدينَ الكبارَ والصّغار –حتّى أولادك وأحفادُك–حينما يأتون إلى زيارتي، مُمسكين بالموبايلات والآي باد، لا يشعرون ببعضهم، ولكنْ لا تقلقي لقد أصدرتُ فرمانًا بعدم استخدام الموبايل أثناء وجودهم عندي، وإلا سأغضبُ، وستغضبين أنتِ الأخرى، وبالفعل تمرّ الزّيارة بصورة جميلة، حتّى الأحفاد أصبحوا يتسلّون ويستمتعون معًا.

لا تقلقي... ما زلت أكتبُ على الورق، وأرفض استخدامَ هذا الشيء المسمّى بالكمبيوتر رغم أنّ الأولاد وضعوه في كلّ مكان بالشركة، ووضعوا واحدًا على مكتبي، ودومًا يمازحونني قائلين: "لو مش حتستخدمه، اعمله حصّالة يا بابا".

*****

حبيبتي نادية

يقومون هذه الأيام بكتابة سيناريو وحوار روايتِك، وجاء شَرْطي الوحيد قبل البدء في التّمثيل أنْ أختار الممثّلة بنفسي كي تكونَ شبيهة بك.

لا تغاري يا حبيبتي؛ فأنا واثقٌ أنّني لن أجد مَن تشبه نفرتيتي روحي، ونادية قلبي، ولكنّني أحاول أن أجدَ بها ولو القليلَ مِن روحك حتّى أقتنعَ أنّها ستجيد التمثيل، وبالفعل جلست مع عدّة ممثّلات، ورفضتهنّ جميعًا، ثمّ وبالصّدفة المحضة أتت ممثلةٌ صغيرة شابّة–تشبهُك شكلا وروحًا–إلى كاتب السّيناريو والمخرج أثناء اجتماعنا، فسألتهم عنها ولكنّهم رفضوها لأنّها مازالت

صغيرةً في عالم الفنّ، فصمّمت أنْ تقرأ جزءًا ما من الرّواية، وتقوم بتمثيله أمامنا، وجاءت النّتيجة مبهجةً للجميع، وفازت بالدور.

أعلمُ أنّ فضولك يأكلك لتعلمي أيّ جزءٍ من الرواية طالبتها أنْ تقوم بأدائه؟ اهدئي يا امرأة، سأقول لك، ولكنّك تعلمين كم أحبّك حينما تتصنّعين الغيرة، وكلّك ثقةٌ أنّه لا يوجد من يتربّع في قلبي سواكِ.

لقد طلبتُ منها أداء الجزء الخاص بنا حينما تقدّمت لخطبتك، وقمت أنا بدور محمود، أراكِ الآن تغارين حقًّا، لا تغاري يا صغيرتي إنّها في عيني مثل مها، وأنا لا أرى في عيني إلّا نفرتيتي.

لقد أجادتِ الصّغيرة الدّورَ، حتّى أنّني بكيت، وتركوا لي الغرفة حتّى لا يروا ضعفي وحاجتي وندائي إليك.

هل تعلمين شيئًا، يا عزيزتي نادية؟ أشعرُ أنّ هذا الفيلم سيكون مسكَ الختام، وبعدها سألقاكِ.

*****

حبيبتي نادية

أقوم الآن بالذّهاب يوميًّا إلى بلاتوهات فيلم نادية، وأجلس معهم جميعًا في لقطةٍ... لقطة، ولا أدع لقطة تمرّ بغلطةٍ ولو صغيرة، أريد أنْ يكون هذا الفيلم نسخةً لما كان بيننا بصورة ما، علمًا بأنّ هناك الكثير من الأشياء التي كانت بيننا ظلّت بقلبي كنزًا، ولم أستطع أن أكتبها على الورق ليقرأها ويراها الناس... أجلس كثيرًا مع سهيلة وشريف -بطلي الفيلم-كي يتمكّنا من تشرّب كلّ تفاصيل حياتنا.

أشعر بأحمد الذي أصبح يحبّ مرافقتي كثيرًا هذه الأيام، مُعجبًا بسهيلة، ولكنْ لننتظر ونرى ما ستجلبه لهما الأيام!

يقولون قلبُ المرء دليله، فهل إحساسُك بالغيرة من سهيلة بطلةِ روايتي كان نابعًا ممّا سيأتي فيما بعد؟ لا أدري!

زارتني سهيلة اليومَ كي تعترف لي بأنّها تحبّني، وتتمنّى أنْ تمضي ما تبقى من عمرها مع رجل أقلّ ما يُقال عنه أنّه رجل جميل، فقلتُ لها: "يا ابنتي، أنتِ تحبّين هذا الرجل كنادية وليس كسهيلة، لقد عشتِ تفاصيل نادية الدقيقة، والرّجل الذي أمامك جميل كما تقولين بحبّ نادية، وسيظلّ وفيًّا لها حتّى يلقاها في العالم الآخر، ولعلّ هناك مَن يحبّك في صمت، فانتظري وسيأتي.".

*****

نفرتيتي

كما قلتُ لك يومًا، أعرف المحبّ مِن أوّل لمحة، خطب أحمد سهيلة، التي أثبتتِ الأيّام أنّها بالفعل تحبّه كما يحبّها، كما أنّها قوية ستستطيع العيشَ والتعايشَ مع أحمد في مرضه، وطلبوا منّي إتمام الزواج بعد الانتهاء من تصوير الفيلم، كم أنا سعيدٌ له؛ إذْ أنّني كنت أخشى أنْ يرفض الارتباط ثانية بحجّة مرضِه فيعيش وحيدًا، فأنا لن أخلّد له.

20

نادية

تمّ عرض فيلم (رسائل نادية) أوّل أيّام العيد بدور السينما في محافظات مصر، وفازَ بعدها بعدّة جوائز مهرجانات محليّة وعربية، وذاع صيتُ بطلة الفيلم بهذا الدور، واعتذرت عن السّفر لتسلّم الجوائز، وأنبتُ عنّي الأولاد.

ها أنا يا حبيبة القلب أجلسُ في بيتنا أمام الكمبيوتر أشاهد مرارًا وتكرارًا روحانا–أنت وأنا –بدلاً من بطلي الفيلم، فأرى سيناريو حياتي منذُ أتت لي الجميلة نفرتيتي تتهادى.

21

زوجي الحبيب

أبنائي... جنّتي في الأرض، والأهل، والأحباب...

أحببتُ أن أطمئنكم عليّ؛ لذلك أكتبُ لكم من مكانٍ لا تعلمون عنه الكثير، لأقول لكم أني بخير، أراقب حماده يلهو مع مَن بعمره، وهو معافًى من كلّ ضررٍ عاش به على الأرض؛ وكما أراقب حماده في السّماء، أراقبكم على الأرض، أرى حزنَكم على رحيلي، أسمعُ دعاءكم لي، فيلهجُ لساني بتمتماتِ الشكر واشتياقي لكم.

لا أريد أنْ أقول لكم: "أنتظركم." فيصيبكم الخوفُ من كلمتي هذه، رغم أننا ندرك كلّنا أنّا إلى زوال.

لا أحمل لكم نصائحَ فأقول هنا أجمل، أو أقول افْعلوا هذا ولا تفعلوا ذاك! جلّ ما أريد قولَه: "كونوا بخير كما كنتم دومًا.".

نادية

تحية شكر وامتنان من القلب

إلى كل من:

لدعمهم لي أثناء الكتابة وقراءتهم لها كمخطوط.

– للمراجع اللغوي عبد القادر أمين

على مراجعته للرواية وتصحيحها لغويا ونحويا وفنيا.

–للفنانة الجميلة الموهوبة نعمة آل موسى، لغلاف الرواية الرقيق.

محبتي، نهى

ملامح عن الكاتبة

نهى نبيل عاصم

مواليد الإسكندرية

خريجة آداب قسم وثائق ومكتبات

متطوعة بمكتبة طه حسين بمكتبة الإسكندرية

عضو باتيليه الإسكندرية، ومختبر السرديات بمكتبة الإسكندرية، وقصر ثقافة الشاطبي..

تكتب المقالات، والقصص، والروايات والخواطر..

نُشر لها ثلاث قصص في كتب جماعية لدار أطلس بعنوان (حواديت البنات)

اشتركت في كتاب للشعر والخواطر جماعي عبر بدار همسة للنشر

وكتاب جماعي مع كاتبات مع دار نشر البشير بعنوان (نون بلا سكون)،

ورواية أمل حياتي صدرت عن دار الشريف للكتاب،

ومجموعة قصصية بعنوان (سمية والقمر) بدار همسة للنشر،

فازت بعدة جوائز تقديرية.

قامت بكتابة سيناريو فيلم بعنوان : (انا والا انت).

ولها تحت الإعداد:

مجموعة قصص للأطفال بعنوان (حواديت ياولاد).

رواية (يناديها روح) وذلك من خلال ورشة باتيليه الإسكندرية مع نخبة من النقاد والروائيين.

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر
دار نشر - دراسات - استشارات - دورات تدريبيّة
الإسكندرية، مصر
44 شارع سوتير، أمام كلية حقوق الإسكندرية
موبايل: 0020103003691
هاتف: 002/034830903
بريد إلكتروني: levant.egsy@gmail.com
موقع إلكتروني: www.levantcenter.net
مركز ليفانت أحد فاعليات شركة ليفانت لتنمية الموارد البشريّة، ش. د. م. م. وفق قانون 159 لسنة 1981م ولائحته، رقم: س ض: 545/584/507،
س ت: 9882.

يقيم المركز دورات ثقافية وتعليمية متنوّعة وورشات عمل وندوات ومحاضرات...، ويستثمر في تطوير الموارد البشريّة وتنميتها، ومن ثمّ فهو يهتمّ بإعداد باحثين في مجال الدراسات الثقافيّة تطبيقًا على علم الكوديكولوجيا وتحقيق النصوص التراثيّة وعلوم العربيّة وآدابها وتجديد الفكر الدينيّ، كما يهتمّ بأصحاب المواهب في الكتابة السرديّة والمسرح والسينما والسيناريو، وينشر أعمالهم ورقيًّا وإلكترونيًّا.

وتدير إدارة المركز موقعًا إلكترونيًّا شاملاً نشاطاتها كلّها، علاوة على إتاحته تحميل الكتب والمقالات والفيديوهات المختلفة.

وينشر المركز المقالات والكتب ورقيًا وإلكترونيًّا وفق عقد مع أيّة مؤسسة أو مؤلّف إفراديًّا.

رقم الإيداع: 25923/ 2019م
الترقيم الدولي:
9 - 977 – 6651 – 83 – 8